الفصل الأول

المدينة المغربية ما بين ق.١-٥هـ /٧-١١م:
التصنيف ومحددات النشأة

obeikandl.com

obeikandl.com

إن المدينة المغربية عموما ماتزال في حاجة إلى الدراسة والبحث، ويتضح ذلك حين محاولة تحديد موقعها ضمن الأشكال العمرانية الأخرى، والعمل على تصنيفها وإبراز مختلف العوامل والمحددات التي طبعت نشأتها وتطورها وتدبيرها عمرانيا.

لعل هذا ما يمكن أن نستشفه من خلال مبحثي الفصل :

المبحث الأول : تصنيف المدينة المغربية

المبحث الثاني : المدينة المغربية : محددات النشأة والتخطيط العمراني

oberikandl.com

المبحث الأول : تصنيف المدينة المغربية

لا يقتصر تصنيف المدينة على معيار وحيد ومحدد، بل إنه يخضع لعوامل مختلفة ساهمت في تشكلها وإبراز خصوصيتها، لهذا وإن كنا نسجل وحدة المدينة المغربية على مستوى المبادئ والقواعد التي حكمت اختيار موقعها وموضعها وتدبير عمرانها، فإننا بالمقابل نسجل دور العوامل التاريخية والسياسية والإدارية والعمرانية ... في تباين كيانها وتعدد هويتها.

سنحاول التعرّف على طبيعة المدينة المغربية عبر التصنيفات التالية :

أولا : تصنيف عمراني

ثانيا : تصنيف تاريخي

ثالثا : تصنيف سياسي

obeikandi.com

أولا : تصنيف عمراني

****

يتميز المغرب بأشكاله العمرانية التي تتباين من حيث الوجود التاريخي والامتداد المجالي والثقل البشري والاقتصادي والسياسي ... وبما أنه يجدر بنا تحديد بعض أهم الوحدات العمرانية، فإننا قبل ذلك نورد بعض الإشارات :

• وجود بعض الاختلافات على مستوى تحديد الأصل اللغوي لبعض أصناف العمران أو صعوبة تحديد مفهومها بدقة ... نموذج "الإقليم" و"المدينة" أو تحديد صفة الشكل العمراني، نموذج ذلك مكناسة مثلا، فقد وصفت بـ"حوائر مكناسة"[١] و"قرى مكناسة"[٢] التي لم تتمدن إلا في العصر الموحدي، و"مدائن مكناسة"،[٣] وهذا ما أشار إليه العلامة محمد المنوني.[٤] كما نعتت وليلي بأنها " قرية"،[٥] علما أنها كانت من أهم مدن المغرب.

---

(١) - أبو عبد الله محمد بن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.٢.١٩٨٣، ص. ٨ وغيرها.

(٢)- إبن غازي، **الروض الهتون**، ص. ٣٢.

(٣)- إبن أبي زرع علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٩، ص. ٩٨، ١٢٣، ١٣٣، ...

(٤)- ينظر بتفصيل : محمد المنوني، "مدائن مكناسة القديمة من العصر الإدريسي إلى أواخر الموحدين"، **البحث العلمي**،ع.٣٧، ١٩٨٧.

(٥) - أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب**، مطبعة أدولف جودران، ط.II، ١٩١١، ص. ١٤٢.

• من جانب آخر إذا كان المقدسي[١] مثلا، يقسم الإقليم إلى كور، ويعتبر أن لكل كورة قصبتها، ثم لكل قصبة مدن، ويقول : "اعلم إنا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند والقرى كالرجال ...". فإبن حوقل[٢] يرادف بين الإقليم والكور، ثم الصقع إذ يقول مثلا صقع أو إقليم طنجة.

وفيما يلي محاولة للتعريف ببعض أشكال العمران البشري :

• **الإقليم** : عرف مفهوم "الإقليم" عند الجغرافيين المسلمين اختلافا جليا، فياقوت الحموي ذهب إلى أن الأقاليم كلمة عربية واحدها إقليم، والإقليم إنما سمي إقليما لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه أي مقطوع، والقلم لغة القطع، ومنه قلمت ظفري ... [٣]

هناك من ذهب إلى أن كلمة "إقليم" محرفة عن الكلمة اليونانية "Klima " التي استخدمها العالم الفلكي اليوناني "هيباركوس" (Hipparchus) في ق.٢ ق.م. ويحتمل أن الرومان أخذوا هذه الكلمة، ونقلها عنهم العرب، ولعل هذا ما يؤكده الرأي القائل بأن العرب استعارت إسم "إقليم" من السريانيين.[٤] هذا، ومن الأقاليم المغربية التي ذكرها إبن حوقل نجد إقليم طنجة الذي قاعدته فاس، ويضم مدن

---

(١)- محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دار السويدي – أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، ط. ١، ٢٠٠٣، ص.٤٢.

(٢)- أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢، ص. ٣٢٨.

(٣)- ينظر : محمد محمود محمدين، "مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسي"، ضمن **بحوث المؤتمر الجغرافي الأول**، المجلدIII، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٤، ص. ٣٤٢.

(٤)- محمدين، "مفهوم الإقليم"، ص. ٣٤٢.

طنجة وأزيلا والبصرة والحجر وكرت وماسيتة والأقلام ونكور ... وإقليم سجلماسة، وإقليم أغمات وما خلفه من السوس، وإقليم برغواطة الذي اعتبره أرض كفر.[١]

• **المصر** : الحد في كل شيء، وقيل المصر الحد في الأرض خاصة، والمصر الكورة، والجمع أمصار، ومصروا الموضع جعلوه مصرا، وتمصر المكان : صار مصرا، والمصر كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات ... فلان مصر الأمصار كما يقال مدن المدن[٢]

• **الكورة** : يعرف إبن منظور[٣] الكورة بالمدينة والصقع، والجمع كور. في حين أن المقدسي[٤] جعل الكورة أعلى مرتبة من المدينة إذ يقول : "وتسمى الكورة السوس الأدنى ومن مدنها : البصرة، زلول الجاحد، سوق الكتاني ... أما إبن حوقل[٥] فقد قسم إقليم المغرب إلى سبع كور هي : برقة وإفريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس والسوس الأقصى وصقلية.

من هنا يبدو الإختلاف والعمومية في تحديد مفهوم الكورة.

• **البلد** : البلد والبلدة : كل موضع أو قطعة متحيزة، عامرة كانت أو غير عامرة ... خال أو مسكون، فهو بلد والطائفة منها بلدة، والجمع بلاد أو بلدان، والبلدان :

---

(١)- صورة الأرض، ص. ٨١-٩١.

(٢)- إبن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، دار الفكر، دار صادر، بيروت، المجلد ٧، ص. ١٧٥-١٧٦.

(٣)- **لسان العرب**، المجلد ٧، ص. ١٥٦.

(٤)- "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ص. ٢٠٩-٢١٠.

(٥)- "صورة الأرض"، ص. ٢١٦.

إسم يقع على الكور. قال بعضهم : البلد جنس المكان كالعراق والشام،والبلدة : الجزء المخصص منه كالبصرة ودمشق. وبلد بالمكان : أقام، يَبْلُدُ بَلودًا اتخذه بلدا ولزمه ...[١]

ومن البلدان المغربية نجد مطماطة أمسكور على نهر ملوية، وعلى بعد ست مراحل من جراوة، وصفها البكري[٢] بالبلد الكبير، وورزازات نعتها ببلد هسكورة،[٣] كما وصف الإدريسي[٤] السوس الأقصى ببلاد السوس.

• **الحاضرة** : الحاضرة : القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيض، فإذا برد الزمان ظعنوا عن إعداد المياه وبدوا طلبا للقرب من الكلأ، فالقوم حينئذ بادية بعدما كانوا حاضرة،[٥] وقد وصفت مجموعة من الأشكال العمرانية بالمغرب بالحواضرَ : كـ"داي" أو "أوداي" حاضرة منطقة تادلا، والتي دمرت

(١)- **لسان العرب**، المجلد VIII، ص. ٩٤.

(٢)- **المغرب**، ص.١٤٧،١٥٢.

(٣)- البكري، **المغرب**، ص.١٥٢ .

(٤)- الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٤م،ج I، ص. ٢٢٧.

(٥)- إبن منظور، **لسان العرب**، المجلد XIV، ص.٦٧.

خلال العصر المرابطي، وقامت على أنقاضها مدينة بني ملال.[١] أو سوق كتامة حاضرة قبائل كتامة على اللكوس ...[٢]

• **المدينة** : نسجل بأن مفهوم "المدينة" عرف اختلافات كثيرة، حكمها تعدد زوايا النظر سواء حسب التخصصات (اللغة، الدين، الجغرافيا، علم الإجتماع ...) أوحتى داخل كل تخصص على حدة.

في اللغة العربية، ترجع كلمة "مدينة" إلى فعل مَدَنَ : مدن بالمكان أي أقام به، مَدَّنَ المدائن : مصرها،[٣] ويورد إبن منظور[٤] معنى آخر للمدينة : "الحصن يبنى في أصطمة الأرض، وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة".

أشار الفيروزابادي إشارة مهمة حين ذكر بأن المدينة تعادل من حيث المقومات الأمة بمدلولها الإجتماعي والجغرافي، وهناك تعريف متقدم أورده الجوهري والزبيدي، حينما أرجعا أصل كلمة "مدينة" إلى جذر"دين" ودنته أي ملكته هو مدين مملوك، عكس ما أشار إليه الكثير من المحققين المستشرقين من أن الأصل ليس عربيا[٥].

---

(١)- ينظر بتفصيل : محمد العاملي، " "داي" أو " أوداي" من خلال مصادر العصر الوسيط"، ضمن **تادلا : التاريخ، المجال، الثقافة**، منشورات كلية الآداب - بني ملال، سلسلة ندوات ومناظرات رقم١، ١٩٩٣.

(٢)- البكري، **المغرب**، ١١٠.

(٣)- إبن منظور، **لسان العرب**، المجلد XIII، ص ٤٠٢.

(٤)- **لسان العرب**، المجلد XIII، ص ٤٠٢.

(٥)- ينظر بتفصيل : عبد الجبار ناجي، **دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية**، شركة المطبوعات للتوزيع و النشر، بيروت، ط.١، ٢٠٠١، ص ٥٧-٦٢ / عثمان عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم

يمكن أن نستخلص من الدلائل اللغوية فهم العرب ورؤيتهم إلى العلاقة الجدلية بين المدينة والإستقرار والأمن والقانون ...

وردت كلمة "مدينة" في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، في صيغة المفرد أربعة عشر مرة والجمع سبعة عشر مرة بمعان مختلفة،[١] حسب ما يقتضيه السياق والإشارة إلى الأمم الغابرة من تذكير لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وعموما "فإن هذه الكلمة لم تخرج في أي حال عن حدود المعنى المادي واللغوي للمدينة وهو في دائرة المعنى المتعارف عليه ... أي البلد العظيمة التي تجمع المنازل والأسواق، وجمعها : مدن ومدائن".[٢] ونشير إلى أن التصوير الذي صورته بعض الأحاديث النبوية الشريفة للمدينة والقرية يكاد يكون متشابها ومتطابقا مع ما جاء في آيات القرآن الكريم.[٣] ويسير التفسير الفقهي للمدينة في الإتجاه اللغوي نفسه، حيث اعتبرها هي المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام ... بالإضافة إلى المسجد الجامع.[٤]

ركز علماء الإجتماع بدورهم على المحدد السياسي المتمثل في وجود مركز السلطة، وأضافوا المحدد الاقتصادي وهو وجود مقر دائم لتبادل السلع

المعرفة، ع. ١٢٨، ١٩٨٨، ص ١٧ وما بعدها/ طه الولي، "المدينة في الإسلام"، **الإجتهاد**، ع.٦، س.٢ (١٩٩٠م)، ص٣٦-٣٩.

(١)- محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ص ٦٦٢-٦٦٣.

(٢)- طه الولي، "المدينة في الإسلام"، ص ٣٣.

(٣)- ينظر : عبد الجبار ناجي، **دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية**، ص. ٦٥.

(٤)- عثمان عبد الستار، **المدينة الإسلامية**، ص. ١٨/ ناجي، **دراسات في تاريخ المدن**..،ص. ٦٧-٧١.

(السوق).[١] وللفلاسفة منظورهم الخاص للمدينة التي اعتبروها مسألة فلسفية، وصنفوها إلى مدينة فاضلة وأخرى جاهلة وإلى مدينة الكرامة ومدينة التغلب[٢] ...إلخ.

هذا، وقد اختلفت معايير تحديد المدينة عند الجغرافيين من معايير كمية تأخذ بعين الإعتبار عدد السكان، إلى معايير مورفولوجية تعتمد الشكل المعماري في تحديد ماهية المدن، إلى معايير نوعية تعتبر المدينة هي ذلك التجمع السكني الذي يشتغل غالبية سكانه في الصناعة والتجارة ... إلى غيرها من المعايير.

إذن هناك صعوبة في تحديد مفهوم دقيق للمدينة حتى قيل : "المدينة هي حيث تشعر أن هناك مدينة ".[٣]

الرحالة والجغرافيون الذين كتبوا عن المغرب خلال الفترة المدروسة، وضعوا في حسبانهم المعطى الزمني والعمراني والاقتصادي والسكاني ... في تصنيفهم للمدينة المغربية، ولعل الجدول التالي يوضح ذلك :

---

(١)- ماكس فيبر، "المدينة : معناها وشروط قيامها"، ترجمة رضوان السيد، **الفكر العربي**، ع. ٢٩، ١٩٨٢، ص.٩ وما بعدها/ محمد أمليد، **المدن الإدريسية منذ أواخر ق.٢ إلى نهاية ق.٤ : دراسة تحليلية تركيبية**، د.د.ع.في التاريخ، كلية الآداب-الرباط،١٩٩٧-١٩٩٨، ص٤٧-٤٨.

(٢)- ينظر: خليل أحمد خليل، "حول المدينة كمرجع اجتماعي للمعرفة"، **الفكر العربي**، ع، ٢٩، ١٩٨٢، ص.١٧١-١٨٧.

٣١- للمزيد بشأن الإختلافات حول تحديد مفهوم المدينة ينظر : محمد أحمد غنيم، **دراسة في الأنثروبولوجيا الحضرية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص.١٥١-١٦٣.

• جدول : وصف المدينة المغربية حسب إبن حوقل والبكري والإدريسي

المدينة	الوصف حسب بعض الجغرافيين					
	إبن حوقل	الصفحة	البكري	الصفحة	الإدريسي	الصفحة
سبتة	لطيفة	٧٩	مدينة قديمة سورها الناصر	١٠٣-١٠٤	سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة	٥٢٨
مليلة / مليلية	أزلية-مدينة ذات سور منيع ...	٧٩	مدينة قديمة	٨٨-٨٩	مليلية مدينة حسنة متوسطة	٥٣٣
نكور	مدينة مقتصدة	٧٩	سورها من اللبن وبها حمامات كثيرة وأسواق عامرة مفيدة	٩٠	بوذكور كانت مدينة فيما سلف ولكنها خربت ...	٥٣٣

obeikandl.com

طنجة	أزلية، والمستحدثة من قبل الأدارسة على ظهر جبل	٨٠	كورة طنجة	١٠٤	مدينة أزلية وحسنة	٥٢٩
زلول	مدينة لطيفة لها أسواق قريبة	٨٠	قرية كبيرة آهلة كثيرة الخير	١٠٩	–	–
ازيلي/ أصيلا/ أزيلا	مدينة عليها سور	٨٠	مدينة محدثة سنة ٢٢٩ هجرية	١١٤	مدينة صغيرة	٥٣٠

obeikandl.com

٥٣٠	كانت مدينة كبيرة	١١٤	مدينة أولية كبيرة آهلة	٨٠	قديمة أزلية	تشمس/ تشومس
٥٣١	حصينة منيعة	١١٤-١٢٧	قاعدة بني محمد- حصن	٨١	مدينة عظيمة محدثة.. حصن منيع ...	الحجر/ حجر النسر

–	–	–	–	٨١	مدينة استحدثها يحيى ابن إدريس ولها سور	الأقلام
٥٣١	مدينة مقتصدة	١١٠-١١١	محدثة أسست في الوقت الذي بنيت فيه أصيلة أوقريبة من ذلك الوقت	٨١	مدينة مقتصدة	البصرة
–	–	١١١	خربة	٨١	منيعة	كرت
–	–	–	–	٨٨	مدينة لطيفة	مزاوروا
–	–	–	–	٨٨	مدينة لطيفة	تابريدا
٢٤٧	مدينة لطيفة صغيرة	٨٨	قرية	٨٨	مدينة لطيفة	صاع

obeikandl.com

٢٤٨	جراوة كانت عامرة	١٤٢.٧٧	كان عليها سور وبداخلها قصبة	٨٨	كانت عامرة آهلة	جرواة أبي العيش
٢٤٢-٢٤٣	مدينتان ...	١١٥	مدينتان-كلا العدوتين جليلة الخطر عظيمة القدر	٨٩-٩٠	مدينة جليلة أحدثها إدريس بن إدريس	فاس
–	–	١٠٩	مدينة كبيرة	–	–	قلعة خروب
٢٤٦-٥٣٠	قصر عبدالكريم – مدينة صغيرة	١١٠	حاضرة كتامة	٨٠	بلد كتامة	حاضرة كتامة/ قصر عبد الكريم
–	–	١١٤	مدينة صالحة كثيرة الخير	–	–	أفتس

obeikandl.com

–	–	١١٤	مدينة إبراهيم بن محمد	–	–	زهجوكة
–	–	١١٤	مدينة جيدة مفيدة	–	–	يجاجين
–	–	١٤٢	معروفة بعين إسحاق قاعدة موسى بن أبي العافية	–	–	مدينة تسول
–	–	٨٧-٨٨	مدينتان مسورتان	–	–	وجدة
	–	٨٧	مدينة مسورة أقدم من تابحريت	–	–	مصكاك

opeikandi.com

–	–	٨٧	مسورة	–	–	تابحريت
–	–	١٥٢	مدينة عامرة	–	–	قلوع جارة
٢٢٥	مدينة كبيرة كثيرة العامر	١٤٨	مدينة سهلية مسورة	٩٠	مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل	سجلماسة
٢٢٨	بلد تويوين	١٥٣	قاعدة بلاد درعة آهلة عامرة	–	–	تيومتين
–	–	١٦٣-١٦٧	أسسها عبد الله بن إدريس بن إدريس ...	٩١	ذكرها ولم يعطها أي وصف	تامدلت

obeikandl.com

٢٢٤	مدينة كبيرة عامرة	٨٦	مدينة نول آخر بلد الإسلام وأول العمران في الصحراء	٩٢	ألمح لها دون أي تفاصيل	نول لمطة
–	–	١٦١	قاعدة بلد السوس ومدينته	–	–	إيجلي
–	–	١٦٠	مدينة لطيفة	–	–	تامرورت
٣٩١	مدينة صغيرة	١٦٠	قديمة أزلية	–	–	نفيس
٢٢٤-٢٢٥	ليست بالكبيرة لكنها متحضرة	–	–	–	–	آزقي / آزكي

opeikandi.com

٢٣٥	أغمات أيلان مدينة صغيرة أغمات أوريكة مدينة حسنة	١٥٣	ذكرهما ولم يذكر مميزاتهما العمرانية	–	–	أغمات أيلان و أغمات أوريكة
٢٣٤	من أكبر مدن المغرب الأقصى	–	–	–	–	مراكش
٢٣٩	مدينة حسنة حصينة	–	–	–	–	سلا
٢٨٩	قديمة – الآن هي خراب	–	–	–	–	شالة
٥٣٢	مدينة متحضرة	–	–	–	–	بادس

obeikandi.com

• **القرية** : جمعها قرى، وهي المصر الجامع، والقرية من المساكن والأبنية والضياع قد تطلق على المدن، القرية : المدينة، سميت بذلك لأنها تقرت، أي اجتمعت،[١] يقول الله عز وجل : **"وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"**،[٢] فالمقصود هنا مكة المكرمة.

لكن إذا استقرأنا بعض كتب الرحلات، نجد أن القرية في كثير من الأحيان تذكر في علاقة مع مركز حضري قادر على بسط نفوذه على المجال المحيط به. وتحدد بالمعنى المقابل للمدينة، على أنها مركز توطين ريفي يفتقر إلى مؤسسات إدارية وإلى سلطة سياسية مهمة.[٣]

ومن القرى المشهورة بالمغرب خلال المرحلة المدروسة نجد هوارة، وهي قرية بإزاء مرسى دنيل في اتجاه من سبتة إلى طنجة، وهي عامرة بها عين عذبة كما وصفها البكري.[٤] ومرسى"بليونس" وهي قرية كبيرة على بعد خمسة أميال من مرسى وقرية تورة، وتاروص قرية "لها مزارع وأرضون"،[٥] ودمنة وهي قرية قرب نهر زلول، وصفت ب" البلد الطيب"،[٦] وحناوة أو جنيارة وهي قرى كثيرة عامرة تبعد

---

(١)- إبن منظور، **لسان العرب**، المجلد XV، ص. ١٧٧.

(٢)- **سورة النساء، الآية ٧٤.**

(٣)- محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، منشورات جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، سلسلة : تاريخ ٤، المجلد ٢٢، ١٩٩٩، ص. ٥٨.

(٤)- البكري، **المغرب**، ص. ١٠٦

(٥)- **المغرب**، ص. ١٠٦

(٦)- **المغرب**، ص. ١٠٩.

عن نهر سبو بمرحلة، وتعرف بالجبل الأشهب،[١] وقرية الكنيسة "مفيدة لكتامة" ورباط حارة الأحشيس، وهي قرية آهلة على الطريق بين"تشومس" وفاس.[٢] وقرية وليلي بن جرماط وفج تازة[٣] وصاع "وهي قرية ذات نهر وثمار وزروع".[٤] كما وصفت أجرسيف بأنها "قرية عامرة".[٥] وقد ذكر الإدريسي بأن إقليم درعة به "قرى متصلة"،[٦] وسوس "قرى متصلة"،[٧] وقرية تونين في فحص أفيح في الطريق بين مراكش و سلا، وقرية تيقطين وغفسيق وقرية أم الربيع، وهي قرية "كبيرة جامعة"،[٨] وقرية إيغيسل نعتت بأنها "حسنة" ثم قرية أنقال، وهي توجد على بعد مرحلة من سابقتها، ويقال لها " دار المرابطين "،[٩] فقرية مكول التي شبهها الإدريسي بـ"الحصن الكبير"، وعلى بعد مرحلة صغيرة توجد قرية أكسيس،[١٠] بالإضافة إلى تمالتة[١١] وغيرها ...

---

(١)- **المغرب**، ص. ١١١.

(٢)- **المغرب**، ص. ١١٤.

(٣)- **المغرب**، ص. ١٤٢.

(٤)- **المغرب**، ص. ٨٨، في حين نعتها إبن حوقل بـ"مدينة لطيفة"، ص.٨٨ والإدريسي بـ"مدينة لطيفة صغيرة"، ص. ٢٤٧.

(٥)- **المغرب**، ص. ١٥٢.

(٦)- **نزهة المشتاق**، ص. ٢٢٧.

(٧)- **النزهة**، ص. ٢٢٨.

(٨)- **النزهة**، ص. ٢٣٦.

٤٦- **النزهة**، ص. ٢٣٧.

٤٧- **النزهة**، ص. ٢٣٨.

(١١)- **النزهة**، ص. ٢٣٧.

obeikandl.com

• **البادية** : قال إبن منظور : "البادية إسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل : قد بَدَوْا، والإسم البَدْوُ ... البادية خلاف الحاضرة ... وتَبَدَّى الرجل أقام بالبادية والبادي هو الذي يكون في البادية ومسكنه المضارب والخيام ... والبداوة : الإقامة في البادية تفتح وتكسر وهي خلاف الحضارة ...".[١]

• **الريف** : من فعل "راف روفا، أي سكن ... والريف : الخصب والسعة في المأكل ... والريف : ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، والجمع أرياف وريوف، قال أبو منصور : الريف حيث يكون الحضر والمياه، والريف أرض فيها زرع وخصب ...".[٢]

ولعل "الريف" ينطبق تمام الإنطباق على الجزء الأكثر تمدنا بالمغرب ابتداء من الفترة السابقة للفتح الإسلامي وإلى حدود القرون الثلاث الهجرية الأولى.[٣] فقد كشفت البحوث والدراسات والحفريات الأثرية بالفعل، عن وجود رصيد عمراني غني موروث سواء عن فترة ما قبل الإسلام (مواقع إيذي، بدكون، بلش) أو بعده خلال حكم أمراء بني صالح الذين أسسوا حضرة نكور وازدهرت في عهدهم

---

(١)- **لسان العرب**، المجلدXIV، ص.٦٧-٦٨.

(٢)- **لسان العرب**، المجلدIX، ص. ١٢٨.

(٣)- أحمد الطاهري، "بلاد الريف : المصطلح والعمران من خلال المصادر العربية"، **ضمن التمدين والتعمير في جبال الريف بالمغرب**، منشورات مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف، سلسلة دراسات مجالية رقم١، ط ١، ٢٠٠٠، ص. ١٢.

العديد من المواقع العمرانية (تمسامان، هرك، كرط، تمسامان، أدار، أوفتيش، بقوية، بلش ...).[١]

• **الرستاق** : "الرُّزتاق والرستاق واحد، فارسي معرب، ألحقوه بقرطاس، ويقال رزداق ورستاق. والجمع الرساتيق وهي السواد ...".[٢] وكان يطلق على العراق أرض السواد، أي الأرض الزراعية الخصبة، وبهذا المعنى استعمل إبن حوقل[٣] كلمة "الرستاق" ليدل على المنطقة الزراعية التابعة للمدينة.

• **القصبة** : اتخذت معاني متعددة، فقد استعملت "القصبة" بمعنى القرية أو وسط القرية، كما كانت تعني الجزء المهم من بلد أو مدينة وقلبها واعتبرت أيضا بمثابة "عاصمة" الإقليم ومدينته الرئيسة،[٤] وهو الأمر الذي ذهب إليه المقدسي : "... وأما السوس الأقصى فقصبتها طرفانة...".[٥] كما وصفت فاس بأنها " قصبة بلاد المغرب".[٦]

بعد ذلك أطلقت على القصر المحصن، والذي هو مكان إقامة الحاكم وسط المدينة أو البلد، وبهذا المفهوم نجدها أكثر انتشارا بالغرب الإسلامي.[٧]

---

(١)- الطاهري، "بلاد الريف"، ص.٩.

(٢)- إبن منظور، **لسان العرب**، المجلد X، ص. ١١٦.

٦٧- **صورة الأرض**، ص. ٨٦.

(٤)- طه الولي، "المدينة في الإسلام"، ص. ٤٤.

٦٩- **أحسن التقاسيم**، ص. ٢١٠.

(٦)- محمد عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس،مكتبة لبنان، بيروت، ط.٢،١٩٨٤، ص. ٤٣٥.

٧١- A. Miquel, *Encyclopédie de l'Islam* : matière *" KASBA"*, T.IV, leiden, ١٩٧٨, p. ٧٨٢-٥٨.

• **القلعة** : تقع في الغالب الأعم فوق مرتفع تضاريسي، وتكون محاطة بسور، كما تضم عدة مرافق كدار الإمارة وثكنات إقامة الجند ومخازن السلاح والغذاء وإسطبلات الخيل والدواب وآبار أو صهاريج لتخزين المياه والمسجد والحمامات ...[١] ومن بين القلاع التي ذكرها الرحالة والمؤرخون، والتي اشتهرت بالمغرب في الفترة المدروسة :

- قلعة كرماط "سوق وحصن على إيناون"،[٢] وسماها البكري "جرماط"، وقال بأنها تبعد عشرة أميال شمال تسول، وكانت معقل أبي منقذ بن موسى بن أبي العافية.[٣]

- قلعة ابن خروب : وصفت بأنها مدينة كبيرة تقع على بعد مرحلة من طنجة في اتجاه فاس.[٤]

- اشتهر المرابطون ببناء القلاع والحصون، حتى عد الإدريسي[٥] ما يزيد عن السبعين بجبل نفوسة فقط، ومن هذه القلاع قلعة أمرجو وقلعة تاسغيموت وقلعة بني تاودا ...[٦]

---

(١)- أسامة طلعت عبد المنعم، "أسوار وقلاع الأندلس"، **مجلة المنهل**، ع.٥٧١، يناير- فبراير ٢٠٠١ ص. ٦٠.

(٢)- إبن حوقل، ص. ١٨٨ / الإدريسي، ص. ٢٤٧.

(٣)- البكري، **المغرب**، ص. ١٤٢.

(٤)- **المغرب**، ص. ١٠٩.

(٥)- **نزهة المشتاق**، ص. ١٢٩.

(٦)- أبو بكر البيذق، **كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المطبعة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص.٩٠-٩٣.

• **الحصن** : "... حصن المكان يحصن حصانة، فهو حصين : مَنُع، وأحصنه صاحبه وحصنه. والحصن : كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه، والجمع حصون. وحصن حصين، من الحصانة، وحصنت القرية إذا بنيت حولها، وتحصن العدو ... المِحْصَنُ : القصر والحصن، وتحصن إذا دخل الحصن واحتمى به ...".[١]

وللإشارة فقد استعملت النصوص[٢] مصطلحي القلعة والحصن كمرادفين، ومن الحصون المشهورة بالمغرب، نجد حصن حجر النسر الذي بناه إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس سنة ٣١٧هـ، والذي اعتصم به الأدارسة أثناء حروبهم مع موسى بن أبي العافية،[٣] وحصن يُرارة وهو "عامر آهل به سوق ... على بعد ثلاثة مراحل من سجلماسة في اتجاه فاس"،[٤] ومغيلة ألقاط "حصن كبير" له سوق يقع على بعد مرحلة من لواتة على نهر سبو في اتجاه سجلماسة،[٥] وحصن داي بين أغمات وفاس على بعد مرحلة من وادي درنة الذي يصب في نهر "وانسيفن"[٦] (تانسيفت)، وحصن وادي مسون، وهو "حصن منيع على أكمة مطل على نهر ملوية وعلى بعد مرحلة من قلعة كرمطة"،[٧] كما يذكر الإدريسي أن "تطاون حصن في بسيط من

---

(١)- إبن منظور، **لسان العرب**، المجلد XIII، ص. ١١٩.

٧٩- ينظر على سبيل المثال : الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص.٩٥، ٢٢٩ ... لكن أحيانا أخرى يجعل الحصن جزء من القلعة : "برقانة.. قلعة عليها حصن منيع.."، ص. ٢٤٨.

(٣)- البكري، **المغرب**، ص. ١٢٧.

(٤)- **المغرب**، ص. ١٤٧.

(٥)- **المغرب**، ص.١٤٧.

(٦)- **المغرب**، ص. ١٥٤.

(٧)- الإدريسي، **النزهة**، ص. ٢٤٧.

الأرض جنوب شرق مدينة سبتة على بعد مرحلة صغيرة "،[١] وحصن كركال الذي يقرب من بادس بنصف يوم،[٢] وحصن تابحريت، وهو حصن حصين حسن عامر آهل وله مرسى مقصود ...[٣]

إذا كنا قد سجلنا الإختلاف اللغوي والإصطلاحي لبعض المفاهيم العمرانية، فإننا نلحظ كذلك تنوع وتعدد أشكال العمران بالمغرب، بالإضافة إلى تأثره بالظروف التاريخية كما سنرى في نقطة "التصنيف التاريخي".

(١) – **النزهة**، ص. ٥٣١.

(٢) – **النزهة**، ص. ٥٣٢.

٨٧– **النزهة**، ص. ٥٣٤.

obeikandl.com

ثانيا : تصنيف تاريخي

*****

تأثر العمران بالمغرب ما بين ق ١-٥ هـ/ ٧-١١م بالأحداث والظواهر الاقتصادية والسياسية والإجتماعية ... وتفاعل معها، ومن ثم عرف تحولات وخصوصيات حسب طبيعة المراحل التي مر منها، سواء في توزيعه داخل المجال المغربي، أو في نوعه وكمه، أو في بنيته وتكوينه.

١. مرحلة الفتح الإسلامي : امتدت هذه المرحلة إلى حوالي منتصف ق. ٢ هـ/ منتصف ق.٦م، وتميزت بعدم إنشاء مدن جديدة، وقد يعزى هذا إلى طول أمد الفتوح التي استغرقت جهود الفاتحين وعرضت مشاريعهم العمرانية للتوقف،[١] كما أن التغيير المستمر للولاة والصراعات الشخصية والعصبية التي كانت تحتدم بينهم أثرت بدورها على أعمالهم التمدينية.[٢] أضف إلى ذلك الثورات الخارجية التي استنزفت جهود الولاة وألجأتهم إلى الإنشغال بتحصين المدن وبناء الأسوار مما قلص من نشاطها وامتداداتها العمرانية، وتعرضت مرارا للحصار والتخريب.[٣]

---

(١) - اسعادة الشيخ، "فجر العمران الإسلامي ببلاد المغرب"، **مجلة كلية الآداب – وجدة**، ع. ٢، ١٩٩١، ص.١٤٥.

(٢) - اسعادة الشيخ، "فجر العمران الإسلامي"، ص. ١٤٦.

(٣) - محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف ق. ٤هـ** دار الثقافة،الدار البيضاء، ط.١، ١٩٧٦، ص. ٩٠ وما بعدها / اسعادة الشيخ، "فجر العمران الإسلامي"، ص. ١٤٦.

بالمقابل، فالفاتحون ورغم أنهم لم يؤسسوا مدنا بالمغرب الأقصى، إلا أنهم ساهموا في إنعاش العديد منها، وإدخالها في دورة الحياة بعد التدهور الكبير الذي كانت تعرفه قبيل الفتح.[١] وهكذا تزايدت أهمية المدن باعتبارها مراكز للسلطة الحاكمة، ولمختلف الأنشطة التجارية والحرفية والتعليمية والدينية ...[٢] كما حافظت المدن الرئيسة على كيانها مثل مدينة طنجة التي أصبحت قاعدة للولاة العرب، منها تدار الشؤون السياسية والعسكرية ... وذلك إلى حدود مجيء إدريس الأول إلى المغرب، حيث وصفها إبن أبي زرع بأنها كانت " قاعدة بلاد المغرب وأم مدنه، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها".[٣] وقد قام موسى بن نصير بتحويلها إلى مدينة إسلامية وبنى بها مسجدا.[٤]

كما حافظت سبتة على كيانها باعتبارها حلقة وصل بين المغرب والأندلس، وحول الفاتحون المسلمون كنيسة مهمة بها إلى مسجد جامع،[٥] وعرفت أصيلا بدورها إزدهارا كبيرا في المجال العمراني والتجاري والأدبي ... بمجرد فتحها من طرف عقبة بن نافع واستيطان المسلمين بها سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م.[٦] وقد استمرت وليلي

---

(١) – هـ . بيجن، "تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ"، **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، ع. ٧–٨، س.٢ (١٩٨٨)، ص.٤٨.

(٢) – Henri Terrasse, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français*, casablanca ١٩٤٩, p. ٢٠٧.

(٣) – القرطاس، ص. ٤٠.

(٤) – عبد العزيز فيلالي، **المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس**، دار المعارف، سوسة - تونس، ١٩٩١، ص. ١٨٨.

(٥) – محمد الأنصاري، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.٢، ١٩٨٣، ص.١٠.

(٦) – عبد الرحيم الجباري، **أصيلا : تاريخ وأعلام**، Service Graphic، ط. ١، ١٩٩٩، ص. ٢٣.

في الوجود، واعتبرت من أهم مدن المرحلة، في حين شمل الغموض مدينة ليكسوس وسلا ...[١]

هذا، وتواترت الروايات التي تطرقت لموضوع الفتح على ذكر إقدام عقبة بن نافع على تأسيس أولى المساجد التي عرفتها البلاد،[٢] ويشير إبن عذاري[٣] إلى أن سنة ولاية طارق بن زياد (٨٥ هـ / ٧٠٤م) كانت سنة إسلام عموم المغاربة، وتحويل الكنائس والمعابد إلى مساجد وجوامع.

مع مجيء الإسلام ازدهرت أيضا مدن قائمة بالجنوب مثل نول لمطة وإيجلي وتيومتين وغيرها. فقد بدا إهتمام الفاتحين المسلمين بها منذ البداية، وإذا كانت بعض المصادر قد أشارت إلى تخريب الفاتحين لبعض المدن كإيجلي وتاقريست مثلا[٤]، فإنها بالمقابل ألمحت إلى دورهم في البناء والتعمير بإقليمي درعة ووسوس[٥]، بالإضافة إلى الخوارج الذين أسسوا بعض الممالك الصغرى للإستفادة من رواج التجارة

٩٧- هـ. بيجن، "تنظيم المجال المغربي"، ص. ٤٩.

(٢) - أحمد الطاهري، **المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البورغواطية خلال القرون الأربع الهجرية الأولى**، النجاح الجديدة، البيضاء، ط.١، ٢٠٠٥، ص.٦١.

٩٩ - إبن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ج.I)**، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان و إ. ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت. ص.٤٣.

(٤)- محمد بن أبي بكر الزهري، **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، ص ١١٧/ مارمول كربخال، **إفريقيا**، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار المعرفة، الرباط، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م، ج II، ص. ٢٨.

(٥) - ينظر مثلا : إبن عذاري، **البيان المغرب**، ج. I، ص.٢٧.

الصحراوية، وبذلك انتعشت حركة التمدين[١]. ولعل عناية الفاتحين بإيجلي مثلا جعل منها "قاعدة بلد السوس ومدينته"[٢]، إذ يروي البكري[٣] أن عبدالرحمان بن مروان مد قنوات المياه إلى السوس وعمل على تعميره .

هكذا نستنتج أن مرحلة الفتح، وإن كانت لم تغير من الثقل المجالي للظاهرة الحضرية، أو يتم خلالها تأسيس مدن جديدة، إلا أنها ساعدت بالتأكيد على خلق ظروف ملائمة للإمارات التي ستأتي فيما بعد لتشيد وتعمر ...

٢. مرحلة الدول المستقلة : ما يميز هذه المرحلة هو تغير مواقع المدن الكبرى من الساحل إلى الداخل، وبروز الجنوب "قوة عمرانية" ساهمت فيها تجارة القوافل والإستقلال السياسي النسبي. وستصبح فاس تدريجيا المدينة الرئيسة بفعل موقعها المتميز "... لكن إذا كان داخل البلاد قد تقوى على حساب السواحل، فإن ذلك لم يمنع من أن الشمال ما فتئ يحظى بأسبقيته وتقدمه على جنوب البلاد، إذ أن أغلب المدن المغربية كانت تتواجد فيه كسلا، العرائش، أصيلا، طنجة التي بدأت تعرف تقهقرا أمام تطور مليلية وسبتة، بالإضافة إلى ظهور بعض المدن الأخرى كالنكور، البصرة..."[٤].

"... أما جنوب المغرب فإنه بدأ ينتظم بشكل أوضح حول الطريقين الرئيستين لتجارة القوافل : الطريق الغربية التي تؤدي إلى السوس وتضم المراكز الحضرية

---

(١)- M. Abitbol, juifs maghrébins et commerce transsaharien : du XIIIe au XVe siècle, in *revue française d'histoire d'outre-mer*, T. L XVI, p.١٧٨-١٧٩.

(٢) - **المسالك**، ج.II، ص.٣٤٨.

(٣) - **المسالك**، ج.II، ص.٣٤٨.

(٤) - هـ. بيجن، "تنظيم المجال المغربي"، ص.٥١.

الآتية : تمدلت، نول، تارودانت لتنتهي بأغمات ... أما الطريق الشرقية فقد كانت تؤدي إلى سجلماسة بعد المرور من توات، في حين كانت تشكل فاس باتصالها بأغمات وتوات نقطة التقاء الطريقين التجاريتين بالجنوب ...".[١]

نتج عن التحولات السياسية لمرحلة ما بعد الفتح إنشاء إمارات ودويلات مذهبية، ساهمت في تطورات عمرانية بالمغرب، تمثلت في ظهور عدة مدن وحواضر شكلت قاعدة لإعلان الهوية السياسية لتلك الإمارات،كما برزت ونمت مدن أخرى استفادت من الإزدهار التجاري والاقتصادي عموما، ومن الاستقرار النسبي وتوفر الأمن ...

ساهم الخوارج في ربط سكان الصحراء بالشمال عن طريق التجارة ونشر الدعوة،كما استغلوا تراجع الخلافة الأموية بالمغرب الإسلامي عموما، ليظهروا في شكل إمارة سياسية مستقلة، عرفت بإمارة الخوارج الصفرية أو دولة بني مدرار أو بني واسول ... وتأسست هذه الإمارة على يد قبيلة مكناسة الزناتية برعامة أبي القاسم سمكو بن واسول،[٢] وكأي إمارة ترغب في تجسيد مشروعها السياسي والمذهبي على أرض الواقع، فقد بنت سجلماسة واتخذتها قاعدة لها، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أهم شيء قام به الخوارج هو تأسيس هذه المدينة التي ستصبح مركزا لحكمهم.

---

(١) - هـ بيجن، ص. ٥١.

(٢) - البكري، ص.١٤٩/ عبدالرحمان بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ج. VI، ص. ١٧٢.

كما يروي صاحب "المعجب"،[١] فقد حرص الصفرية على بناء سجلماسة في "موسطة الصحراء" بعيدا ما أمكن عن سلطة الأمويين، قرب نهر زيز،[٢] "وأسسوا وسطها حصنا يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة "،[٣] وتمت إحاطتها بسور أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله ... وله إثنا عشر بابا الثمانية منها حديد، وكان بناد اليسع له سنة تسع وتسعين ومائة ..."،[٤] منها الباب القبلي والباب الغربي وباب غدير الجزارين وباب موقف زناتة وغيرها.[٥]

وسرعان ما تحولت سجلماسة من سوق موسمي يلتقي فيه بربر النواحي،[٦] إلى سوق كبرى ربطت المغرب بالسودان الغربي والمشرق الإسلامي، بعد أن ربطت جنوبه بشماله، و"بذلك اندمجت الصحراء بشكل فعال في الصيرورة التاريخية لمجموع المغرب الشمالي، وكان تأسيس الدولة المرابطية من أبرز ما يدل على هذا الاندماج".[٧] وهكذا عظم شأن حاضرة الصفرية إلى الحد الذي جعل "أبو محلي

(١)- عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.٢، ٢٠٠٥، ص.٢٥٦.

(٢)- يسميه إبن خلدون خطأ "وادي ملوية"، (العبر، ج VI، ص. ١٧٠)، ويتبعه في ذلك محمود إسماعيل **في الخوارج في بلاد المغرب**، ص.١١٨

(٣)- المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص.٢١٦.

(٤)- البكري، **المغرب**، ص. ١٤٨.

(٥)- المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص.٢١٦.

(٦)- البكري، **المغرب**، ص١٤٩/ إبن عذاري، **البيان المغرب**، جI، ص.١٥٦.

(٧)- علي صدقي أزايكو، **تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة**، مركز طارق بن زياد، أمبريال، ط.١، ٢٠٠٢، ص.٥٧.

السجلماسي"[١] يعتبرها "صرة" بلاد المغرب حيث تتفرع عنها طرق عدة، وبوصف آخر[٢] "مدينة كبيرة كثير العامر وهي مقصد للوارد والصادر كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ...".

كان من بين الإمارات التي أسست في مرحلة ما بعد الفتح إمارة بني صالح، نسبة إلى صالح ابن منصور الحميري المعروف بالعبد الصالح، والذي دخل المغرب في البدايات الأولى للفتح الإسلامي زمن الوليد بن عبد الملك الأموي، ونزل بمرسى تمسامان.[٣] وقد سارع بنو صالح[٤] إلى تأسيس حاضرة نكور لتصبح من أشهر القواعد العمرانية بالمغرب، وعرفت ازدهارا مهما في عهدهم، ولهذا نعتتها المصادر بالمدينة "الكبيرة"[٥] و"العظمى"[٦] ...

---

(١)- **تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة**، مخطوط بالخزانة الملكية، رقم ٢١٦٣، الرباط، ص.٣.نقلا عن ماجدة كريمي، **تجارة القوافل : آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط**، دار نشر الجسور، وجدة، ط.١، ١٩٩٦، ص.٦٧.

(٢)- الإدريسي، **النزهة**، ص.٢٢٥.

(٣)- البكري، **المغرب**، ص٩١/ إبن عذاري، **البيان المغرب**، ج.I، ص.١٧٦.

(٤)- ينسب إنشاء مدينة نكور إلى سعيد بن إدريس بن صالح ثالث الأمراء، وقد اختلف في السبق التاريخي بين نكور وسجلماسة، فأحمد الطاهري يحدد الفترة في ثلاثينيات ق.٢ هـ (**بلاد الريف**، ص.١٤). أما عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات فيعتبران سجلماسة أول مدينة إسلامية بالمغرب (**المدينة في العصر الوسيط : قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي**، المركز الثقافي العربي، ط.١.١٩٩٤. ص ٥).

(٥)- إبراهيم الإصطخري الكرخي، **المسالك والممالك**، دار القلم، القاهرة،١٩٦١، ص ٣٤/ الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٥٧٦.

١٢٠- أحمد بن واضح اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ط.٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧، ص. ٣٥٧.

وقد بنيت نكور في موضع قريب من سوق قديمة مسكونة، حيث "كان صالح بن منصور أنزل نفرا من البربر موضعا يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر (نهر نكور وغيس) وكانوا يقيمون هناك سوقا فنقلهم سعيد إلى المدينة التي أسس ..."،[١] وقد أحيطت بسور من لبن به أربعة أبواب هي باب اليهود شمالا، وباب سليمان جنوبا، وباب بني ورياغل في الجنوب الشرقي ثم باب المصلى غربا، كما كان بها مسجد جامع أعمدته من خشب العرعر، وحمامات كثيرة وأسواق عامرة،[٢] وفي طرف موضع يقال له "أكدال" حيث يلتقي نهرا نكور وغيس تم بناء "رباط نكور"،[٣] كانت وظيفته حراسة المدينة من الغارات البحرية بالخصوص.

على العموم، يمكن اعتبار نكور ظاهرة حضارية وعمرانية متميزة، ارتبطت بالنشاط التجاري خاصة على الواجهة المتوسطية والتي بالإضافة إليها ازدهرت أشكال عمرانية أخرى، نذكر منها مدينة تمسامان وقاعدة تاوريرت ومدينة مرجانة (مدينة الكدية) و"تنتصب بادس باعتبارها من أبرز المراسي البحرية وقاعدة قبائل صنهاجة على الشاطئ المتوسطي، بينما تهيكلت زواغة حول المدينة المنسوبة إليهم والمعروفة بجراوة "،[٤] بالإضافة إلى مراسي محلية كانت تربط المغرب بالأندلس كالمزمة وهرك وكرط وأدار وأوفتيس وبقوية ويلش ...كما انتشرت بفعل الهجومات النورماندية خلال ق.٣هـ/٩م عدة حصون وقلاع مثل تسافت وإكري ومسطاسة

---

(١)- البكري، **المغرب**، ص ٩٢.

(٢)- البكري، ص. ٩٠/ جاك كاني، "إمارة نكور في أواسط ق.٥هـ (١١م)". **البحث العلمي**،ع.٢٢، س.١١(١٩٧٤)، ص. ١٤٧-١٤٩.

(٣)- البكري، ص.٩١.

(٤)- أحمد الطاهري، "بلاد الريف"، ص.٩، ١٤.

والصقالبة.[١] وعلى كل حال، فقد صاحب إنشاء الإمارة الحميرية تطور النشاط التجاري والفلاحي، وهو ما ساعد على تطور وازدهار ظاهرة التمدين ببلاد الريف عموما.

إذا كانت مرحلة الفتح الإسلامي قد ربطت المغرب بأوروبا من جهة، وإفريقيا جنوب الصحراء من جهة ثانية، فإنه خلال المرحلة التالية عملت الدول المستقلة على تكريس التوجه نحو الجنوب، فقد غير تنظيم المجال من توجهاته، "بحيث أن المرافئ الساحلية لم تعد مركزا وحيدا للمجال الحضري بالمغرب"،[٢] إذ أن المجال الداخلي المغربي اتخذ طريقه في التبلور، وأصبح أساسا للحكم الإدريسي بقاعدته الداخلية فاس، التي تتوسط البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، في حين أن الشمال والجنوب قد تم الوصل بينهما، وخضعا نسبيا لسلطة الأدارسة، وساهمت تجارة القوافل في نشأة وتطور مدن الجنوب.[٣]

في إطار الحديث عن استراتيجية التمدين، هناك[٤] من حصر الأقطاب التعميرية للأدارسة في أربع مناطق :

---

(١)- الطاهري، "بلاد الريف"، ص.٩.

(٢)- هـ. بيجن، "تنظيم المجال المغربي"، ص.٥٠.

(٣) - هـ. بيجن، ص.٥٠.

(٤)- بزاوي الكبير، **المدن والتجارة والسلطة السياسية بالمغرب الأقصى في العصر الوسيط (منتصف ق. ٢- منتصف ق. ٦هـ)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب – الرباط، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص.٤٢ / M. Garcia –Arenal et E.Manzano Moreno, Idrissisme et villes idrisides, *Studia Islamica*, N°٨٢, ١٩٩٥, p٥-٣٢.

- منطقة محور ساحل المحيط الأطلسي : ومن أبرز مدنها البصرة وأصيلة وطنجة وارتبط هذا المحور بالأهمية التجارية والزراعية وتربية الماشية.

- منطقة فازاز : ومن أبرز مدنها وازقور ومريرت وتاجراجرا وهي متعلقة بمناجم الفضة الموجودة بجبل عوام ، بالخط التجاري الذي يصل الشمال بالجنوب .

- منطقة تلمسان : ومن أهم مدنها أرشقول وجراوة ومرسى تافرجنيت، باعتبارها شكلت طريقا رئيسة نحو المشرق، وشبكة من المرافئ لتصدير تجارة سجلماسة.

- منطقة الجنوب : تضم مدن تامدولت وإيجلي وماسة التي شكلت عمودا فقريا للتجارة الصحراوية.

وقد ركز الأدارسة خاصة على المجال المتوسطي أو منطقة الشمال الغربي للمغرب، مما أدى إلى بروز مجموعة من المدن، بالإضافة إلى أخرى تم تجديدها وتعميرها، وتنوعت ما بين مدن محصنة أخذت طابعا عسكريا، ومدن ومرافئ في ملتقى الطرق التجارية وعلى السواحل، ومدن في المناطق الغنية فلاحيا، ثم مدن تقع بالقرب من المناجم ولها ارتباط بالطرق التجارية.[1]

وتبقى مدينة فاس أهم المدن والحواضر التي أنشأها الأدارسة، وضع حجرها الأساس على الأشهر سنة ١٩٢هـ، حيث تم بناء عدوة الأندلس على يد إدريس

(١) - بزاوي، **المدن والتجارة والسلطة السياسية**، ص.٢٤.

الثاني،[١] ثم انضافت إليها عدوة القرويين سنة ١٩٣هـ،[٢] وأرجع الجزنائي[٣] الرغبة في بنائها والإنتقال إليها، إلى ضيق مدينة "وليلة" بجند وحشم الأدارسة، إلا أن الأمر قد يكون سياسيا مرتبطا بالمؤامرات والدسائس التي قد تحاك ضد إدريس الثاني.

لعل الأمير الإدريسي كان واعيا بأهمية موقع وموضع[٤] مدينته التي ستصبح قاعدة دولة الأدارسة الناشئة، فقد كتب لها أن تزدهر بسرعة نظرا لتمركزها في وسط البلاد، بحيث تربط بين اتجاهاتها الأربع، ثم بفضل توفرها على شروط جغرافية واقتصادية و ... مناسبة لقيام وتطور المدن. وهكذا أصبح لمدينة فاس صيت واسع في ظرف وجيز، وقصدها المهاجرون من القيروان وقرطبة، كما قصدها الفقهاء والعلماء والتجار والصناع.[٥] إلا أن المدينة كبرت واتسعت، لكن ليس بالصورة

---

(١) - مؤلف مجهول، **الإستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، ١٩٨٥، الدار البيضاء، ص.١٨٠/ علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.٢، ١٩٩١،ص.٢٤/ الحميري، **الروض المعطار**، ص.٤٣٤.

(٢) - **البكري**، ص.١١٥/ **الجزنائي**، ص.٢٤/ **الإستبصار**، ص. ١٨٠.

(٣) - **جنى زهرة الآس**، ص.٢٥.

(٤) - حول أهمية موقع فاس وموضعها راجع :

Fès, *Hespéris*, T.XIX, ١٩٣٤, J.C élérier, les conditions géographiques du dévloppement de p.١-١٩.

(٥)- **الجزنائي**، ص. ٢٦.

التي تصفها بها المصادر،[١] ففي العصر الإدريسي لم تجتمع لها شروط الحاضرة المركزية مثلما اجتمعت لقرطبة في الأندلس والقيروان في إفريقية، وكانت يومئذ لا تختلف عن مدن أخرى في الشمال والجنوب، من مثل سبتة وطنجة ونكور وسجلماسة وتلمسان ... ويمكن القول أن هذه المدن كانت أهم من مدينة فاس.[٢]

على أي حال، فقد عرفت القاعدة الإدريسية "ازدواجية حضرية" حيث انقسمت منذ التأسيس إلى عدوتين مسورتين، تضم كلتاهما عدة أبواب، كما توفرت المدينة على"جامع فيه ثلاث بلاطات ... له صحن كبير"، وعلى حوالي عشرين حماما،[٣] كما شيدت بقلبها قيسارية منذ عهد إدريس الثاني.[٤] وفي أيام علي بن محمد بن إدريس تمتعت فاس بالأمن وقام بأمر الأدارسة من بعد أخوه يحيى بن محمد، الذي كثرت في عهده العمارة، حيث اهتم بتزويد عاصمته بالمباني ذات المنافع العامة كالحمامات والفنادق التي أقيمت لخدمة التجار والوافدين.[٥]

لم يقتصر اهتمام الأدارسة على فاس فقط، بل انصرفوا إلى بناء مدن جديدة وترميم أخرى قديمة، فإدريس الأول كانت أولى أعماله هي إعادة ترميم مدينة وليلي

---

(١) - جمال أحمد طه، **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (٤٤٨هـ/١٠٥٨م إلى ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) : دراسة سياسية وحضارية**، دار الوفاء، الإسكندرية، ص.٥٥.

(٢) - محمد بن شريفة، "أوائل الإفتاء والمفتين بالمغرب"، ضمن **التاريخ وأدب النوازل**، منشورات كلية الآداب - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٤٦، ص. ٣٣.

(٣) - البكري، **المغرب**، ص ١١٥ - ١١٦.

(٤) - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣، ج.I، ص.١٩٠.

(٥) - **القرطاس**، ص.٦٧-٦٨. / **العبر**، ج. IV، ص.٤٩.

وسورها المنحوت من الحجر الكبير والذي تخترقه الأبواب العالية العريضة، فأصبحت في زمن قليل مدينة متحضرة يقصدها الناس بكثرة من مختلف الأنحاء.[١]

وحسب إبن حوقل فقد ظهرت مدن أغلبها تحت النفوذ الإدريسي، تم إنشاؤها أو ترميمها وتعميرها كالبصرة وأصيلا وزلول وجرمانة وتاوارت وحجر النسر والأقلام وكرت وماسيتة ونهالته ومزوروا وتابريدا وكرانطة وقلعة كرماطة وصاع وجراوة أبي العيش ...[٢] كما قدم البكري جردا دقيقا لمواقع المدن والقلاع الإدريسية مما جعلنا أمام شبكة حضرية تدل على الدور العمراني للأدارسة خاصة بمنطقة الشمال الغربي،[٣] فعلى الطريق من طنجة إلى فاس[٤] نجد قلعة ابن خروب وهي"مدينة كبيرة"، ودمنة وهي "بلد طيب لصنهاجة"، و"حاضرة سوق كتامة"، والتي كانت قاعدة إدريس بن القاسم بن إبراهيم، ثم قصر دنهاجة،[٥] "وهو على تل وتحته نهر عظيم وفيه آثار للأول وبه كان ينزل ملوك المغرب في قديم الدهر"،

---

(١) - الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.I، ص.٢٩٥.

(٢) - **صورة الأرض**، ص.٨٦-٨٩.

(٣) - **المغرب**، ص.١٠٩-١١٥/ محمد عمراني، **الشرف والمجتمع والسلطة السياسية : الشمال الغربي المغربي نموذجا (من ق.١٠ إلى ١٣ هـ / ١٦-١٩م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب – الرباط، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص.١٥٠ -١٥٣.

(٤) - ينظر البكري حين وصفه للطريق من طنجة إلى فاس (**المغرب**، ص١٠٩-١١٥).

(٥) - يشير ذ. محمد المغراوي إلى أنه وقع خلط في بعض المصادر بين قصر كتامة وقصر دنهاجة (**مدينة قصر كتامة من الأصول إلى نهاية عصر الموحدين**، ضمن "مدينة القصر الكبير، الذاكرة والحاضر" منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، سلسلة الندوات رقم١، ط.١، ٢٠٠١، هامش ص.٥٠)

وكذلك "البصرة[١] وهي مدينة كبيرة واسعة ... وسورها مبني بالحجارة والطوب وهي بين شرفين ولها عشرة أبواب وجامعها سبع بلاطات وبها حمامان ..."، ومدينة "ماسنة" (ماسيتة) ومدينة "سداك"، ومدينة أصيلة[٢] التي كانت تتوفر على سور يحصنها، له خمسة أبواب، كما تتوفر على جامع كبير وسوق رائجة، ودمنة وحجر النسر وأفتس وتشومس وزهجوكة ويُحاجِّين وإصادة، وفي " مجاز الخشبة على وادي ورغة... قرارات كثيرة شبيهة بالمدن ...".

نستطيع القول أن قرار "التقسيم الاداري" الذي قام به محمد بن إدريس بين إخوته انعكس على الظاهرة المدينية بالإيجاب نسبيا، فقد جعل هؤلاء يكرسون جهودهم للإكثار من تشييد المدن، لمحاولة ممارسة عملية الجذب على العناصر البشرية المحيطة بها وتعميرها، وبالتالي الدخول تحت نفوذ الحكم الإدريسي.

لم يقتصر تطور وازدهار التمدين على شمال المغرب فحسب، بل عرف الجنوب الظاهرة نفسها وإن كانت بصفة أقل، حيث نجد بأن عبدالله بن إدريس الثاني الذي

---

(١) - احتلت البصرة مكانة مهمة بعد فاس، حول أهميتها ينظر : محمد سعيد رضا، "دراسة في الأحوال الحضارية للبصرة المغربية وعلاقتها بالبصرة العراقية"، دار الحكمة، سلسلة تراث البصرة (٢)، ١٩٩٠.

Daniel Eustache, El-basra, Capitale idrissite, et son port, 1er -- 2ème trimestre, 1955, p217-234.

(٢) - يؤرخ البكري لتأسيس البصرة بعام ٢٢٩هـ " في الوقت الذي أسست فيه أصيلة أو قريبا منه" (ص.١١٠-١١٢)، لكن دراسة العملة الإدريسية وضح أن بناء المدينتين أو إعادة بنائهما يرجع إلى الربع الأخير من ق.٢هـ، ينظر :

M. Garcia-arenal et E.Manzano-Horeno, Idrissisme et villes idrissides, p. ٢٤ ٢٥

وعن نشأة وتطور أصيلة، ينظر عبد الوهاب بنمنصور، "أصيلة عبر التاريخ"، **المناهل**، ع.١٦، س.٦، محرم ١٤٠٠/ دجنبر ١٩٧٩، ص. ٧٦-٨٣.

كان واليا من قبل أخيه محمد على السوس الأقصى،[١] قد بنى على مشارف الصحراء مدينة تامدولت في موقع سهلي على بعد ست مراحل جنوبا من إيجلي، ووصفتها المصادر[٢] بأنها كانت كثيرة العمارة حافلة الأسواق، وأن عليها سور من طوب وحجر وحمامان، كما أن لها أربعة أبواب. وقد مكنها موقعها الإستراتيجي والمحصن، وكذلك مناجم الفضة الموجودة بالقرب منها[٣] من القيام بدور مهم في تنشيط التجارة الصحراوية،[٤] لهذا اعتبرت مدينة منجمية وقوافلية.[٥] ورغم ضعف المعلومات يعتقد أن بعض المدن الجنوبية التابعة للأدارسة ستعرف ازدهارا خلال هذه المرحلة، نموذج ذلك مدينة إيجلي التي اتخذوها عاصمة لهم بالسوس.[٦]

على العموم، يظهر أن الدويلات التي ظهرت على مسرح واقع ما بعد الفتح الإسلامي، قد أبلت البلاء الحسن في نشوء وتطور التمدين بالمغرب، وخاصة الإمارة الإدريسية التي أنعشت الكثير من المدن القديمة، وبنت مدنا جديدة لعبت أدوارا مختلفة حددت طبيعتها المراحل التي مرت منها هذه الإمارة. لكن التدخل

---

(١) – البكري، **المسالك**، ج.II، ص.١٦٣/ الحميري، ص.١٢٨/ أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، المغرب، ٢٠٠١، ج.I، ص٤٣.

(٢) – البكري،ج.II، ص.١٦٣ / **الإستبصار**، ص.٢١٣ / الحميري، **الروض المعطار**، ص.١٢٨.

(٣) – البكري،ج.II ، ص.١٦٣/ **الإستبصار**، ص.٢١٣/ **الحميري**، ص.١٢٨.

(٤) – El Aloui Abdel Aziz, ***le Maghreb et le Commerce transsaharien (milieu du XIème - milieu du XIVèmes)*** en vue du doctorat du ٣ème cycle, bordeaux, ١٩٨٣, p.٧٦.

(٥) – عن نشأة وتطور وأفول تامدولت ينظر :

Bernard Rosemberger, Tamdult : cité minière et caravanière présaharienne(IXème - XIVèmeS.), *Hespéris-Tamuda*, vol. XI, ١٩٧٠,p.١٠٣-١٣٩.

وهو الذي أثبت وجود مناجم النحاس بها (ص.١٢٢)

(٦) – محمد أمليد، **المدن الإدريسية أواخر ق.٢هـ إلى ق.٤هـ** ص.٦٣، ٢١٣، ٢١٢ .

الخارجي المتمثل في الصراع الفاطمي والأموي حول مناطق النفوذ بالمغرب، قد أدى إلى تدهور الكيانات السياسية السائدة، وساهم الصراع الداخلي وتنافس الأمراء على السلطة في التسريع بانهيارها وأفولها، و إتاحة الفرصة لظهور قوى "هامشية" سهلت عملية التدخل الخارجي، مما أشعل فتيل التناحر و الحروب التي أهلكت الحرث والنسل، وأدت إلى تراجع التمدين، بل وتخريب العديد من المدن، وأوضح مثال على ذلك، مدينة البصرة التي هدمت مع حملة أبي الفتوح بن زيري على المغرب،[١] كما شن موسى بن أبي العافية حملة تقتيل وإبادة ضد الأدارسة، وقام بتخريب المدن التي حصنوها، كأرشقول[٢] مثلا. والأمر نفسه وقع لمدينة دلول من قبل الأمويين.[٣]

لقد كان للصراع الفاطمي الأموي بالمغرب نتائج وخيمة على مختلف الميادين،[٤] ومن ضمنها الميدان العمراني، الذي لا شك أنه سيتضرر كثيرا، لكن بالمقابل تزايدت أهمية بعض المدن وظهرت أخرى للوجود، نتيجة تزايد النفوذ الزناتي، وتأسيس أمراء بني يفرن ومغراوة لمجموعة من الإمارات القبلية الصغرى، ومن أهم المراكز الزناتية في هذه المرحلة :

---

(١) – إبن عذاري، ج.I، ص. ٢٣٧.

(٢) – أمليد، **المدن الإدريسية**، ص. ٢١٩.

(٣) – إبن عذاري، ج.II، ص.٢٤٦.

(٤) – عن النتائج التي خلفها الصراع بين العبيديين والمروانيين بالمغرب ينظر : عبد الكريم بيصعين،**الصراع الأموي الفاطمي في المغرب الأقصى (ق.٤ هـ/ ١٠م)**، د.د.ع. في التاريخ، كلية الآداب– فاس، ١٩٨٣–١٩٨٤، ج. II، ص.٤٣٠–٤٤٥.

- ***فاس*** : تعرضت المدينة لهجومات متكررة من قبل أطراف الصراع، حيث كانت هدفا لأمويي الأندلس وفاطميي إفريقية، ثم لمختلف الحكام الزناتيين، وانعكس هذا الصراع في فترة ما على المدينة، فكرس الإنقسام في شطريها، بين عدوتي الأندلس والقرويين ، خاصة في عهد الأميرين الفتوح وعجيسة، حيث استقل كل واحد منهما بإحدى عدوتي المدينة،[١] وذلك بعد فترة انتعاش شهدتها فاس أيام والدهما دوناس بن حمامة الذي أدار الأسوار على جميع أرباضها من كل الجهات، وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق"،[٢] "فصارت حاضرة المغرب، ولم يشتغل دوناس من يوم ولي إلى أن توفي إلا بالبناء والتشييد".[٣]

لقد نالت المدينة عناية فائقة رغم الصراعات العسكرية التي تعرضت لها، ويظهر ذلك من خلال تنافس كافة الأطراف الحاكمة في البناء والتشييد عموما، وبناء المساجد وتوسيعها والإهتمام بها خصوصا، إذ في هذا العهد تم توسيع جامعي القرويين والأندلس مرات عديدة، كما أخذت ملامح التجارة الصحراوية في التبلور، وأصبحت فاس ملتقى الطرق الداخلية والخارجية.

- **وجدة** : تم تأسيسها من طرف زيري بن عطية المغراوي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م،[٤] وقد اختلفت المصادر والدراسات في خلفية التأسيس، ما بين أسباب سياسية

(١) - الجزنائي، ص. ٤٠-٤١ / **القرطاس**، ص.١٤١.

(٢) - الجزنائي، ص.٤٠ / **القرطاس**، ص.١٤٠.

(٣) - **القرطاس**، ص.١٤٠.

(٤) - إبن خلدون، **العبر**، ج. VII، ص.٤٣.

وعسكرية، أو عصبية أو مادية أونفسية ...[١] وفيما يخص الجانب العمراني، فإننا لا نعرف عن مدينة وجدة سوى القليل، والذي جاءت به بعض الإشارات المصدرية، إذ يذكر البكري[٢] أنها "مدينتان مسورتان، كما يشير العبدري[٣] إلى أنها "مدينتان بينهما مسافة قليلة"، كما توفرت على سكنى للتجارة وأسواق.[٤]

- **أغمات** : وضع المغراويون يدهم على أغمات أوريكة وأقاموا إمارة شورية[٥] على حساب المصامدة،[٦] وكذلك هيمنوا على سجلماسة إلى أن طردهم منها عبدالله بن ياسين، كما جعل اليفرانيون من سلا[٧] وتادلا[٨] مركزا لهم.

إذن، فرغم التراجع الحضري الذي شهدته مجموعة من المدن المغربية نتيجة التحولات السياسية القاسية خلال هذه الحقبة، إلا أن مجموعة أخرى استفادت من ظروف جعلها مراكز للسلطة الزناتية، فتوسعت وازدهرت، مستفيدة كذلك من وقوعها قرب المحاور التجارية، خاصة الصحراوية منها.

---

(١) - ينظر هذه الإختلافات عند : خديجة هرام، **التطور التاريخي لمدينة وجدة خلال العصر الوسيط : دراسة جغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية**، د.د.ع.م. في التاريخ، كلية الآداب-سايس فاس، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص.٤٠-٤٧.

(٢) - **المغرب**، ص.٨٧.

(٣) - محمد العبدري الحيحي، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، سلسلة الرحلات رقم٤، الرباط، ١٩٦٨، ص.٢٧٩.

(٤) - البكري، ص.٨٧.

(٥) - البكري، ص.١٥٣.

(٦) - إبن أبي زرع، ص.١٦٣.

(٧) - **العبر**، ج. VII، ص.٤٣.

(٨) - إبن أبي زرع، ص. ٦٤.

٣. **المرحلة المرابطية** : تشكل هذه المرحلة طورا جديدا من البناء والتعمير بالمغرب، حيث تزايدت حيوية الحركة العمرانية، رغم أن المرابطين لم تكن لهم استراتيجية عمرانية في الشمال، بل ركزوا أكبر اهتمامهم على الجنوب،[١] وتم ميلاد شبكة طرقية أكثر توسعا نتيجة الإزدهار التجاري المتزايد مما أدى إلى ارتفاع وتيرة التمدين، وظهور المدن المحورية كقوة جذابة. وهكذا تأسست مراكش. وعرفت سجلماسة وفاس وغيرهما قفزة كبرى،كما استمر غنى الظاهرة الحضرية بعدة مجالات، وتبلورت مدن مهمة تمتد على خط محوري من الشمال إلى الجنوب كسبتة وفاس والداي وأغمات وسجلماسة ونول لمطة ...[٢]

وقد اكتملت الشبكة الحضرية بإنشاء مراكش[٣] التي أصبحت قاعدة الجنوب، ومن أهم معالمها خلال المرابطين نجد المسجد وقصر الحجر (دار

(١) - محمد المغراوي، "مدينة قصر كتامة"، ص.٥٦.

(٢) - بزاوي، أطروحة، ص.٤٦.

(٣) - تم الاختلاف حول المؤسس ودواعي التأسيس، فصاحب "الحلل الموشية" يذكر أن أبا بكر بن عمر هو الذي شرع في اختطاط المدينة سنة ٤٥٢ هـ وأن يوسف بن تاشفين شيد بها حصن قصر الحجر سنة ٤٦٣ هـ (مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، ١٩٧٩، ص.١٦) فيما ذكر إبن أبي زرع وإبن خلدون أن مراكش من تأسيس يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ (**القرطاس**، ص١٧٥/ **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٥)، ويذكر إبن عذاري أن أبا بكر بن عمر شرع في بنائها سنة ٤٦١هـ (**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ج.IV)**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط.٥، ١٩٩٨، ص.١٩-٢٠) أما الإدريسي فينسب تأسيسها إلى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠ هـ (**نزهة المشتاق**، ص.٢٣٣) ... ومهما يكن فالراجح أن فترة تأسيس مراكش غير

الإمارة).[١] وبنى الناس سكناهم بالطين والطوب والطوابي،[٢] كل حسب قدرته،[٣] وسرعان ما اتسعت أسواقها وتنوعت،[٤] وهاجر إليها الناس من كل حدب وصوب، مما عجل بتمدنها وتحضرها حتى أضحت في ظرف وجيز من أكبر مدن المغرب و"حسن قطرها ومنظرها".[٥]

رغم أن المرابطين اتخذوا من مراكش العاصمة السياسية لهم، لم يؤثر ذلك على دور مدينة فاس التي استمرت في النمو والإزدهار، وهو ما يظهر من خلال بعض الشهادات المصدرية التي تصور المدينة في غاية الرقي. يقول عنها صاحب الاستبصار : "ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح، وقد بنيت أكثر جناتها الملاصقة لها دورا، وأضيفت إليها"،[٦] بينما يصفها المراكشي[٧] بـ"حاضرة المغرب".

معلوم أن المرابطين قد وجهوا عنايتهم إلى فاس، وجعلوا منها مدينة واحدة بعدما أزالوا الأسوار الفاصلة بين العدوتين، وبنوا العديد من المرافق، من أسوار

مرتبطة بسنة معينة، وإنما استغرقت مرحلة شملت كل السنوات الواردة في المصادر، كما أن دواعي التأسيس المختلفة كانت حاضرة بشكل من الأشكال.

(١) - **الحلل الموشية**، ص. ٢٥/ الإدريسي، ص. ٢٣٤. وسمي بقصر الحجر أو دار الحجر، نسبة إلى بنائه بالحجر الذي اقتلع من جبل إيجليز.

(٢) - الإدريسي، ص. ٢٣٣.

(٣) - إبن عذاري، ج. I، ص.٢٠.

١٧٥ - **الحلل الموشية**، ص. ٢٧-٢٨ / الإدريسي، ص. ٢٣٤.

(٥) - الإدريسي، ص. ٢٣٤.

(٦)- مجهول، **الإستبصار**، ص ١٨٠.

١٧٨- **المعجب**، ص ٥٠٤.

وقناطر ومساجد وسقايات وحمامات وخانات ...[١] واستعانوا في انجاز تلك المهام باستقدام الصناع من الأندلس.[٢] ولهذا قال عنها الجزنائي[٣] واصفا حالها في هذه الفترة : "وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من الغبطة والعمارة والرفاهية والسعة والأمن والعافية ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب".

لم يقتصر اهتمام المرابطين على مراكش وفاس، بل قاموا ببناء وترميم مجموعة من المدن وإضافة مجموعة من المعالم العمرانية، فقد شيدوا مدينة بني زياد والقصر وتاقررت وشيشاوة وتجيت وتدنست وتاكولت وأم الربيع ومقول ...[٤] وبعد سيطرتهم على سجلماسة والمناطق المجاورة لها أسسوا مدينة "تبلبلا"، واتخذوها من جملة القواعد التي يعتمد عليها في بسط نفوذهم بالمغرب،[٥] كما ظهرت مدينة تاودا "وكانت مدينة كبيرة أسسها الملثمون ليملكوا منها جبل غمارة ... وكان يسكنها ولاة المغرب بالعسكر، وكانت في أيامهم معمورة المباني الحسان والقصورالمنيعة"،[٦] وكذلك تطورت مكناسة وحصنوها.[٧]

---

(١)- أبو بكر محمد المرادي الحضرمي، **كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، البيضاء، ط.١، ١٩٨١، ص.٢٥ / الجزنائي، ص.٤١-٤٢.

(٢)- الجزنائي، ص.٤٢

(٣)- الجزنائي، ص.٤٣-٤٤.

(٤) - الإدريسي، ص.٤٣-٤٦،٥١-٥٢.

(٥)- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص.١٩٤-١٩٥.

(٦) - **الإستبصار**، ص.١٩٠.

(٧) - الإدريسي، ص.٢٤٥ / البيدق، ص.٩٢ / إبراهيم القادري بوتشيش، "مساهمة في دراسة تطور تجارة مكناسة في "العصر الوسيط""، **مجلة كلية الآداب – مكناس**، ع.٣، ١٩٨٩، ص.٢٠.

يبدو أن الملثمين استطاعوا أن يوحدوا المغرب سياسيا، وهو ما ساعد على نمو المبادلات التجارية، كما كرسوا الأمن فازدهرت الفلاحة والحرف، وبالتالي تطور العمران الحضري، وبرزت إلى الوجود مدن محورية كبرى قامت بوظائف وأدوار مهمة.

عموما فإن الفترة ما بين ق.١-٥هـ/٧-١١م عرفت محافظة شمال المغرب على تقدمه التمديني، لكن بالمقابل عرف الجنوب انتعاشا حضريا ساهمت فيه بشكل أساس تجارة القوافل الصحراوية. كما تحولت تدريجيا القواعد الكبرى من الساحل نحو الداخل، ومن الشمال نحو الوسط والجنوب.

obeikandl.com

ثالثا : تصنيف سياسي

*****

عموما يمكن تصنيف المدينة المغربية سياسيا إلى مدينة حاكمة ومدينة خاضعة ثم أخرى متمردة، فالمدينة الحاكمة تمثل قاعدة السلطة التي ترتكز عليها. وجذورها التي تتفرع عن طريق ضم مدن جديدة في جميع الإتجاهات الممكنة باستمرار. والمدينة الخاضعة تقبل التبعية وتؤدي فروض الطاعة والولاء ولو نسبيا، خاصة في أوج قوة السلطة الحاكمة، وقد تكون المصالح متبادلة، فـ"الخدمات" المرتبطة بالأمن والحماية، يقابلها الخضوع المطلق وأداء الضرائب، لكن يحدث أن تتمرد المدينة سواء في المبتدأ، أو عندما يصبح لكل وجهة هو موليها، نتيجة اختلاف مذهبي أو قبلي أو سياسي أو اقتصادي ...

١ - **المدينة الحاكمة / القاعدة** : تحتاج السلطة إلى المدينة لتجسيد مشروعها السياسي والمذهبي على أرض الواقع، وخاصة المدينة القاعدة التي تعد ركيزة أساس لانطلاق ونمو السلطة وتحكمها في المجالات المجاورة، ولذلك تكون لها رمزية خاصة، فهي بمثابة الرأس للجسد بالنسبة للسلطة مقارنة مع المدن الأخرى، إذ أنها عنوان حياتها واستمرارها في الوجود مادامت مهيمنة عليها، بالرغم من نقصان تراب ومجال نفوذها من أطرافه واستيلاء سلطة ثائرة أو متمردة على بعض مدنه ... فدخول سلطة جديدة قاعدة سلطة قديمة يعني لهذه الأخيرة الدمار والفناء والموت، ولعل هذا ما وقع للمرابطين وغيرهم.

تتعدد عوامل وأهداف اتخاذ مدينة ما قاعدة للحكم، فأن تصبح المدينة حاكمة يعني إعلان الهوية السياسية والمذهبية للسلطة، والعمل على تحقيق طموحها عبر بناء مؤسسات وآليات للتنفيذ، وتعتبر الهيبة عاملا قويا ومهما في تحديد علاقة السلطة بمختلف الأطراف، ولهذا تحاول هذه السلطة أن توحد بين ذاتها وبين الكيان العمراني للمدينة. فضخامة المباني والأسوار والإبداع فيها، وإعطاء بعضها صفة القداسة، يسهل عملية الخضوع والانقياد.[١]

لهذا فكل سلطة تعمل على اتخاذ مدينة قاعدة لها، تستجمع من خلالها ذاتها وأمرها، وتطور كيانها وأدوات بسط نفوذها وتحكمها. فالحميريون اتخذوا نكور قاعدة لهم، والمدراريون بنوا سجلماسة، والأدارسة أسسوا فاس، والمرابطون شيدوا مراكش ... وهذا زيري بن عطية المغراوي "بنى مدينة وجدة، وشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها، وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدته ودار ملكه لكونها واسطة بلاده ..."،[٢] وفي الإتجاه نفسه يقول الناصري : "... لماقتل زيري بن عطية يدو بن يعلى صفا له المغرب ... وسمت همته إلى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته فبنى مدينة وجدة"،[٣] وذهب

١٨٦- Voir, Arnold Toynbée, *les villes dans l'histoire*, cités en mouvement, traduit de , *la cité à* Lewis Mumford / l'anglais par M,Matignon, Payot, Paris, ١٩٧٢, p-٩٤-٩٥ , , Paris , édition Seuil , traduit de l'American par Guy et Gérard Durand *travers l'histoire* p.٥٤-٦٣.

(٢) – القرطاس، ص.١٣١.

(٣) – الإستقصا، ج.II، ص.١٢٩.

ذ. بوتشيش إلى أن ميلاد وجدة جاء استجابة لرغبة فردية ناتجة عن الشعور بالقوة والإعجاب بالنفس".[١]

على أي حال، فاتخاذ قاعدة ما كان يسمح للسلطة بتسهيل عملية التحكم في المجال، ويمكنها من العمل على توحيده، إذ أن الوظيفة الحربية للقاعدة كانت تقضي بضمان السيطرة على المناطق المجاورة عبر السيطرة على أهم مراكزها العمرانية، ودور القاعدة أيضا متأصل في طبيعة عملية ضم مناطق جديدة وتوحيدها وضمان تبعيتها، فكل حركات التوحيد السياسي بحاجة ماسة إلى المدينة القاعدة كأداة للتعبير عن نفسها وتثبيت وجودها وتأكيد هيبتها ... ذلك أن نجاحها يقتضي القاعدة القوية المتفوقة التي تتمحور حولها المدن الأقل شأنا بالطبع، وإلا كان المصير هو الفشل ... وكمثال، يقول إبن أبي زرع : "... فلما ملك (زيري بن عطية) مدينة فاس استقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه ...[٢] بل إن زيري هذا لم يكتف بفاس، فأنشأ وجدة لإتخاذها قاعدة ينطلق منها لتوسيع نفوذه شرقا من السوس الأقصى إلى طرابلس، وبالتالي إحياء أمجاد المملكة الزناتية لبني خزر.[٣]

وهذه مراكش أسست واتخذت قاعدة للمرابطين لمراقبة المصامدة والتحكم في جبل درن "لكثرة من يعمره"منهم،[٤] ولأن ذلك يعني أن "زمام جبل درن بيد

---

(١) - إبراهيم القادري بوتشيش، "وجدة والمدينة الأوروبية الوسيطية"، **مجلة كلية الآداب - وجدة**، ع.٣، ١٩٩٢، ص. ٧٧.

(٢)- **القرطاس**، ص.١٢٨.

(٣)- عبد الهادي التازي، "زيري بن عطية وسياسته الخارجية"، **مجلة كلية الآداب**- وجدة، ع.٢، ص. ٢٢٧.

(٤)- **الإستبصار**، ص.٢٠٩.

أميرها"،[١] مع استمرار فاس قاعدة لتوسعاتهم في الشمال نظرا لثقلها وموقعها وأهميتها.

إن الملاءمة والإمتيازات العملية وسهولة الإتصال بالمدن الأخرى شكلت عاملا حاسما وأساسا لبناء واتخاذ القواعد، فالموقع الملائم يخول لهذه الأخيرة أن تكون مركزا إداريا وعسكريا يمكن من ضبط المجال والنظام، والإستفادة من الطرق التجارية، ومن استخلاص الضرائب وإخماد التمردات ... ومن بين الإعتبارات في اتخاذ مدن معينة مقرا للحكم نجد الإعتبار القبلي، ففي كثير من الأحيان يكون موقع القاعدة محاطا بالقبائل الموالية أو المنتمية عصبيا للسلطة الحاكمة، ولعل هذا سر استبدال زيري بن عطية المغراوي فاس التي كانت تحيط بها القبائل المناوئة، بوجدة التي تقع وسط مضارب القبائل الزناتية .

الملاحظ أن حجم المدينة الحاكمة يلائم ويوازي حجم السلطة، والعكس صحيح، ولهذا تعددت القواعد الحاكمة مابين قواعد قبلية وجهوية وكبرى، ساهم في ذلك مدى قوة السلطة وطموحها والظروف المحيطة بها. ومع التطور التاريخي للمغرب مابين ق.١-٥هـ/٧-١١م، برزت مدن حاكمة متعددة بصمت تاريخ المغرب وأثرت في مساراته المختلفة.

مع بداية الفتوحات استمرت وليلي وطنجة مراكز للسلطة والحكم، فطنجة مثلت قاعدة الولاة العرب وعمال الخلافة الأموية،[٢] لكن مع الظروف العامة التي

---

(١)- **الحلل الموشية**، ص ١٦.

(٢)- عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم، **فتوح إفريقيا والأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤، ص.٧١.

عرفها المغرب، والمرتبطة بجور ممثلي الأمويين، واندلاع الثورات الخارجية، وتأسيس الكيانات السياسية والمذهبية ذات الطابع المحلي ...كل هذا أدى إلى ظهور مدن حاكمة جديدة اتخذت قواعد لإمارات تلك الفترة : فنكور قاعدة بني صالح، وسجلماسة قاعدة بني مدرار، وفاس قاعدة بني إدريس، كما اعتبرت نول في أقصى الجنوب قاعدة قبائل لمطة، وربما كانت آنفا قاعدة البورغواطيين.[١]

بسطت سجلماسة سيادتها على المناطق المجاورة في كل الإتجاهات، فامتدت غربا إلى منطقة درعة لتأمين المسالك التي تربطها ببلاد السوس، وشمالا إلى حوض ملوية بجوار الحدود الإدريسية، أما حدودها الشرقية والجنوبية فكانت بلاد الصحراء المتصلة ببلاد السودان.[٢]

لم يعرف مجال حكم الأدارسة توسعا مهما إلا بعد انتقالهم من وليلي إلى فاس التي أسسها إدريس الثاني، لتصبح من أهم المدن الحاكمة بالمغرب، فموقعها وتمازج عناصرها السكانية وطبيعة الحكم الإدريسي الذي يستمد شرعية توسعاته من الإنتماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتطبيق حكم الله تعالى ونشر الإسلام، كل هذا ساعد مدينة فاس على توسيع شبكة نفوذها إلى طنجة وسبتة شمالا، وشالة غربا، وتامدولت جنوبا، ثم تلمسان شرقا، وذلك في أقوى امتداد لحكمها .

---

(١)- محمد حجاج الطويل، "من تامسنا إلى الشاوية"، ضمن **البادية عبر تاريخ المغرب**، تنسيق إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب- الرباط، ١٩٩٩، ص.٤٦.

١٩٦- حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في ق.٨هـ / ١٤م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٩٧، ص.٢٤-٢٦ .

إثر التدخل الفاطمي والأموي في شؤون المغرب تراجعت هذه الإمارات لصالح قوى قبلية جديدة، كما انتقل الأدارسة بحكمهم من فاس إلى حجرالنسر التي بنيت حصنا وملجأ لهم، وللحفاظ على ما تبقى من مملكتهم، ورغم الصعوبات فقد تحكمت هذه الأخيرة في الشبكة الحضرية لأقصى الشمال الغربي للمغرب : طنجة، سبتة، قصر مصمودة، تطاوين، أصيلة، تشمس، قصركتامة، البصرة، كرت، زلول، تاوريرت، أقلام، ماسيتة،[1] لكن عنف الصراع الفاطمي الأموي وشدة وطأته أديا إلى انهيار الإمارات السائدة، وتعديل الخريطة السياسية لصالح العصبية الزناتية بالأساس، وصاحب ذلك تراجع نفوذ المدن الحاكمة، وظهور أخرى على مسرح الحياة السياسية. وهكذا أصبحت فاس وأغمات قاعدة لبني مغراو، وسجلماسة قاعدة لبني خزرون، وبرزت سلا قاعدة لبني يفرن، وتارودانت قاعدة للشيعة البحلية، ومع مجيء المرابطين ظهرت مراكش إلى الوجود، واستفادت من الظروف السياسية السائدة، لتبرز مدينة حاكمة لمجموع الغرب الإسلامي.

إن منطق المدينة الحاكمة يهدف إلى السيطرة وإحكام القبضة على كل شيء، بما في ذلك من ممرات تجارية وأسواق ومدن ... لأنها ترفض مزاحمتها في تدبير السلطة، ولا تبتغي غير الخضوع والطاعة المطلقة لها بديلا. ولتحقيق هذا الغرض تستعمل كل أنواع القسوة والعنف والترهيب والتدمير ... والإستنزاف الاقتصادي المتمثل في استخلاص الضرائب المتنوعة. وقد كانت القواعد توظف لأداء عدة مهام ولتحقيق أهداف السلطة، منها فرض السيطرة على أكبر مجال ممكن، وتكوين كيان

---

(١) - Idrisside du Maroc septentrional "Capital ", Hagar al-Nassr"Voir : Patrice Cressier, *Genèse de la ville islamique en al-*", in ˝ : archéologie et histoire (IVe H./Xe ap.J.C) ., p . ١٩٩٨ , Madrid , Casa de Velázquez- CSIC" *Andalous et au Maghreb occidental* ٣٠٩-٣١٢.

يستطيع منافسة باقي الكيانات المجاورة، والهيمنة على الشرايين التجارية، واستغلال خيرات الموقع، بالإضافة إلى اعتبارها الوسط الملائم الذي تنمو فيه السلطة وتؤسس عبره ذاتها وهياكلها.

٢- **المدينة الخاضعة** : إن التوسع المجالي لأي سلطة يعبر عن مدى قوتها وسطوتها، لهذا كانت المدينة رهانا للتنافس بين مختلف السلط، وكان يتم إخضاعها تحت مبرر محاربة الظلم والبدعة أو نشر الأمن والعدل والإسلام ... وعن طريق الغزو أو الحصار أو الصلح المفروض ... وتتم إدارتها من طرف أحد أفراد العصبية الحاكمة.

كما أشرنا سابقا، فمع الفتح الإسلامي أصبحت كل المدن المغربية خاضعة لحكم طنجة، لكن مع ظهور الإمارات السياسية المستقلة عن الخلافة المشرقية، تعددت ولاءات المدن : فمليلية خضعت لنكور، ولا نعلم هل كانت هناك من مدن خاضعة لآنفا وسجلماسة أم لا ؟ أما فاس فخضعت لها جل المدن المغربية كتلمسان وطنجة وأصيلا وتشميس والبصرة والداي وماسة وغيرها. إلا هناك من المدن من خرجت عن حكم فاس، خاصة مع ضعف الدولة الإدريسية مثل سبتة وأغمات وتلمسان ... ومع ق.٣هـ/ ٩م توسعت شبكة المدن الإدريسية الخاضعة، خاصة بعد أن انضافت إيجلي وتامدولت اللتان أسستا من طرف عبد الله بن إدريس، وأصبحتا من أهم المدن بالسوس.

مع الظروف السياسية العامة التي عرفها المغرب إثر التدخل الفاطمي والأموي، وانتقال مركز الحكم الإدريسي من فاس إلى حجر النسر، خضع لهذه الأخيرة جل الشبكة الحضرية لأقصى الشمال الغربي للمغرب، مثل البصرة، تطاوين، قصر مصمودة، أصيلة، تشمس، قصر كتامة، البصرة، كرت، زلول، تاوريرت،

أقلام، ماسيتة ... وبظهور المرابطين خضعت كل مدن المغرب والغرب الإسلامي لحكم مراكش الحاضرة الكبرى، مع استمرار فاس قاعدة للشمال نظرا لموقعها الإستراتيجي وأهميتها في الإرتباط بمجموعة من الجهات ومراقبتها.

كان الخضوع يتجلى في أمور مادية ومعنوية، كأداء الواجبات المالية، إذ يشير إبن حوقل مثلا إلى أن إقليم طنجة كان خاضعا لآل إدريس نظرا لأنه "تصل إليهم جبايته ويجتبون خراجه"،[1] ويذكر الناصري أن المرابطين لما فتحوا مدن السوس ألزموا أهلها بأداء الزكاة والأعشار.[2] ومن مظاهر الخضوع أيضا، التبعية المذهبية للمدينة الحاكمة من طرف المدينة الخاضعة، فالأمويون حينما أخضعوا فاس في مرحلة معينة فرضوا على أهلها الطاعة بـ"الدخول في الجماعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك بن أنس ... وتوقفهم عن العمل بما كانت ضلال الشيعة زرعته عندهم من البدع والتبديل والتحريف ..."،[3] ونتج عن الغزو المرابطي لتارودانت القضاء على المذهب الرافضي والرجوع إلى المذهب السني. وقد كانت الخطبة باسم السلطان والإمام وضرب السكة من الأمور الرمزية التي تعبر عن دخول المدينة في طاعة سلطة معينة، والتي تعين من يمثلها ويحكم بإمرتها. ونشير إلى أن عملية الإخضاع غالبا ما كان يصاحبها تدمير لبنيان المدينة وتخريب لمعالمها، لأنه كثيرا ما يتم دخولها عنوة وليس صلحا، حيث تستخدم كل أدوات القوة والعنف.

١٩٨- صورة الأرض، ص.٨١.

(٢)- الإستقصا، ج. II، ص.١٧٣.

(٣)- إبن حيان الأندلسي، المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق عبدالرحمن الحجي، بيروت، ١٩٨٣، ج. III، ص.١٧٤.

في إطار البحث عن مشروعية تقوي نفوذها لا تتوانى بعض المدن في الرضى بالخضوع وإعلان التبعية، وهذا مايصدق على سبتة التي ربطت مصيرها بالأندلس مع الحموديين والبورغواطيين، حتى أنها أصبحت هدفا لأطماع قرطبة بالمغرب.[١] وبالإضافة إلى سبتة فقد كانت مليلية وطنجة وأصيلا والبصرة ... تابعة للحكم الأموي في بداية ق ٤هـ/ ١٠م. بل إن فاس بدورها خضعت له بالقوة وفرض عليها التبرأ من الشيعة الفاطميين وطاعة الحكام الأندلسين،[٢] خاصة مع ميل ميزان القوى لصالحهم ، وذلك منذ عهد عبد الرحمان الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) حيث ستعرف الأندلس أوج قوتها وازدهارها.

٣- **المدينة المتمردة** : إن عملية غزو أو هيمنة سلطة ما على مدينة معينة ليس بالأمر الهين دائما، فبفعل التناقضات المختلفة لا تكون المدينة سهلة الإنقياد للخضوع السياسي، لهذا فكثيرا ما يصاحب عملية الدمج تمردات حضرية لا تؤمن بالسلطة الوافدة الغازية، لأن الإندماج السياسي للمدينة قد يعني ذوبانها وانصهارها في مشروع السلطة / المدينة الحاكمة، وأن تتنكر لجميع مصالحها المذهبية والاقتصادية لصالح الولاء لهذه الأخيرة إذا اقتضى الأمر.

بالإضافة إلى الإختلافات السياسية والمذهبية والعصبية وغيرها، يعتبر ضعف سلطة المدينة الحاكمة عاملا جوهريا في تعدد تمردات المدن وثوراتها للخروج عن سلطة النقيض. فخلال ق٣هـ/ ٩م شهد المغرب تفككا وانقساما سياسيا وصراعات سواء بين الكيانات الحاكمة، أو حتى داخلها في إطار الصراع حول الحكم، وقد كشفت التنقيبات الأركيولوجية أن بعض المدن استغلت هذا الوضع لتخرج عن

---

(١) - محمد حناوي، "سبتة من الأصول إلى ق.١٤"، **مجلة كلية الآداب - المحمدية**، ع. ٩، ص.١٢٩.

(٢) - إبن حيان، **المقتبس**، ج. III، ص. ١٧٥ .

السلطة الإدريسية في إطار حركة تمرد اعتزالية، مثل مدينة وطيط وإيجرمان بزعامة أعلام المذهب، كمحمد بن أكسيل ومعزوز بن طالوت وأبي حفص الزناتي،[١] كما انفصلت سبتة، وتمردت أغمات التي اعتمدت أنظمة تقليدية، ترتكز على حكم مجلس القبائل برئاسة أحد شيوخها، "وكانت إمرة أهل أغمات دولا بينهم، يتولى الرجل سنة، ثم يبدلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق".[٢]

وفي المرحلة الأولى من حكم يوسف بن تاشفين تمردت سبتة ضد التوسع المرابطي، حيث كان يسيطر عليها الحاجب ضياء الدولة المعز بن سقوت، ساعدها في ذلك موقعها الإستراتيجي المحصن، وقوة أسطولها البحري الذي استطاع هزم الأسطول المرابطي والإستيلاء على قطعة منه، مما دفع بيوسف بن تاشفين إلى طلب العون من المعتمد بن عباد، فبادر هذا الأخير في إرسال المساعدة، وبذلك تمت السيطرة على سبتة يوم الجمعة من صفر سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م.[٣]

أما مدينة نكور، فقد تعرضت للتخريب نتيجة رفضها الخضوع لكل سلطة وافدة، فموسى ابن أبي العافية "تركها بلاقع تسفى عليها الرياح وتعاوي فيها الذئاب"،[٤] وذلك خلال حملة سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م، بعد أن باءت محاولات عبيد الله

---

(١) – Banque du Maroc, *Corpus des dirhams idrissites et contemporains*, Daniel Eustach , Rabat, ١٩٧٠-١٩٧١, p.٣٠٨-٣١١ / بيصيعين، **الصراع الفاطمي الأموي**، ص. ٤٦

(٢) – البكري، **المسالك**،ج.II، ص.٣٣٩.

(٣)– إبن خلدون، العبر، ج. VI، ص.٢٤٧ / أحمد عبد المنعم، **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص. ٣٠٦-٣٠٧.

(٤)– البكري، **المسالك**،ج.II، ص.٢٨١.

الشيعي لإخضاعها بالفشل، فقد كتب عبيد الله إلى سعيد بن صالح كتابا ضمنه شديد الوعيد منه :

وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا فإن تستقيموا أستقم لصلاحكم
وأدخلها عفوا وأملوها قتلا وأعلو بسيفي قاهرا سيوفكم

لكن سياسة الترهيب لم تجد آذانا صاغية من آل صالح، حيث رد عليه شاعرهم، بأبيات منها:

ولا علم الرحمن من قولك الفضلا كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا
تمثل للجهال في السنة المثلا فما كنت إلا جاهلا ومنافقا
وقد جعل الرحمان همتك السفلى[1] وهمتنا العليا لدين محمد

كما تعرضت نكور للغزو المرابطي إبان يوسف بن تاشفين الذي خربها "فلم تعمر بعده"،[2] وذلك دائما بسبب رفضها الدخول في طاعة المرابطين.

يقوم العامل الجغرافي بدور مهم في تشجيع مدن الأطراف والهوامش على التمرد ضد السلطة الحاكمة، إذ غالبا ما تستغل بعدها عن المركز السياسي والعسكري خاصة في فترة ضعف الدولة، لتعمل على الخروج عن الطاعة والخضوع، وتنفرد بكيان سياسي مستقل. هذا ما ينطبق بشكل واضح على مدينة تارودانت التي ثارت ضد السلطة الإدريسية، فقد استغلت البعد الجغرافي وعدم دعم الأدارسة للمذهب

---

٢٠٧ - المسالك، ج.II، ص.٩٥.

(٢) - العبر، ج. VI، ص. ٢٤٧.

الشيعي الذي تبنته لتعلن استقلالها الذي سيتأكد مع وفاة إدريس الثاني سنة ٢٠٣هـ، رغم الحملات التي تعرضت لها سواء في عهد سلفه سنة ١٧٣هـ أو في عهده سنة ١٩٧هـ. بل إن السوس بأكمله ظل منعزلا ومنفصلا إثر اشتعال الصراع بين أبناء الدولة الإدريسية.[١] كما أرسل العبيديون عدة حملات لإخضاع تارودانت وسوس عموما لسلطانهم، كحملة القائد جوهر الصقلي سنة ٣٤٧هـ، إلا أنها لم تؤثر في طبيعة الأوضاع السائدة.[٢] وقد واجهت تارودانت الهجوم المرابطي لكنها انهزمت ودخلها المرابطون عنوة فقتلوا أعدادا كبيرة وعفوا عمن رجع إلى السنة حسب ما تذكر المصادر التاريخية،[٣] وهو ما مكنهم من بسط نفوذهم على بلاد السوس.

على العموم ساهمت عوامل متعددة في تمرد العديد من المدن، منها العامل الجغرافي، كالموقع المحصن على البحر كما هو الشأن بالنسبة لسبتة، أو البعد عن القوى السياسية المهيمنة كما رأينا في حالة تارودانت، وكذلك العامل القبلي، فشيعة هذه الأخيرة كانت تعضدهم عصبية بني لماس المحمودية ضد أي خطر أو هجوم خارجي،[٤] إضافة إلى الإختلاف المذهبي، إذ أن أهل تارودانت كانوا روافض يحصرون الإمامة في ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولعل هذا من أسباب رفضهم الخضوع لأي سلطة كيفما كانت، حتى الأدارسة الذين كانوا أقرب إليهم

(١) - ينظر : وداد القاضي، "الشيعة البجلية بالمغرب الأقصى"، ضمن **أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، الجامعة التونسية**، مركز الدراسات والأبحاث الإقتصادية والإجتماعية، السلسلة التاريخية (١)، ١٩٧٩، ج. I، ص. ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) - "الشيعة البجلية بالمغرب الأقصى"، ص.١٨٩.

(٣) - **القرطاس**، ص.١٦٣ / **الإستقصا**، ج.II، ص.١٧٣.

(٤) - "الشيعة البجلية"، ص١٩١.

مذهبيا من غيرهم، ومن أسباب كثرة حروبهم وصراعهم مع مخالفيهم، وربما كانت لقلة التكاليف الشرعية لديهم وظيفة في الرغبة في الإنفصال.[١]

(١) - وداد القاضي، "الشيعة البجلية"، ص. ١٩١.

obeikandl.com

المبحث الثاني : المدينة المغربية : محددات النشأة والتخطيط العمراني

يمكن اعتبار الدين الإسلامي دين تمدن وتمدين ومدن، فهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب أحدثت ثورة في كافة المناحي، ومنها الجانب العمراني حيث ظهرت المدينة المنورة إلى الوجود، كما أدت التوسعات الإسلامية إلى بزوغ عدة مدن من مثل دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان ... وذلك راجع إلى عوامل سياسية وإجتماعية مختلفة، ثم إن بعض العبادات والأحكام الشرعية تتوقف على الإستقرار، والذي لا يتأتى إلا في الحواضر والمدن حيث مقر الحكام القائمين على تطبيق الشريعة.

من هنا كان الإهتمام بالتمدين والتمصير "ضرورة حتمية" لتثبيت رسالة الفتح الإسلامي، إذ أن الإسلام احتاج إلى عمارة المدينة لتستطيع الجماعة المسلمة ممارسة واجباتها الدينية،[1] بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عد من جملة الكبائر الأعرابية بعد الهجرة.[2]

السؤال المطروح : ما عوامل ومحددات نشأة المدينة المغربية ؟ وما علاقتها بموقعها ؟ ثم ما هي أهم معالم تخطيطها العمراني ؟

---

[1]- أمليد، **المدن الإدريسية**،ص.٢٠٧/ سعد فهمي، **العامة في بغداد في ق.٣ و٤ هـ : دراسة في التاريخ الإجتماعي**، دار المنتخب العربي، بيروت، ط.١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص.١٣.

[2]- محمد أحمد الراشد، **العواتق**، دار المنطلق،١٩٩٤، ص.١٦٩.

أولا: عوامل النشأة

*****

تغوص المدينة المغربية في القدم، بحيث تبقى أصولها التاريخية غامضة، برغم أن المصادر المتوفرة لا تفيدنا بوجود مدن قديمة، فإن الحفريات الأكيولوجية أثبتت ذلك، فنحن نعلم بأنه بالإضافة إلى العنصر البشري الأمازيغي المحلي: سادت الحضارات الفنيقية والإغريقية والرومانية... وهذا لابد أن ينتج عنه ميلاد العديد من المدن، إذ مع مرور الزمن بدأت شيئا فشيئا تتضح معالم الشبكة الحضرية المغربية. وساهم فتح المسلمين للمغرب وانتشار الإسلام في ربوعه في ترميم وإحياء مدن قديمة وإنشاء مدن جديدة، خاصة مع أواسط ق.٢هـ/٦م نتيجة التطور السياسي والاقتصادي العام الذي عرفته المنطقة. فسياسيا، ظهرت عدة إمارات حاولت كل منها بلورة هويتها وبسط نفوذها في المجال، ومن ثم تجسيد مشروعها على أرض الواقع، وتمثل هذا الواقع في أكمل صوره في المدينة. واقتصاديا، خلق الفتح حركة اقتصادية وتجارية احتاجت إلى أسواق ومراسي ومحطات، شكل بعضها أنوية لتطور الظاهرة الحضرية بالمغرب. وإجتماعيا، أثرت التحولات السياسية والاقتصادية الإيجابية عموما على الأوضاع المعاشية للمغاربة، وساعد تحسين نمط وأساليب الإنتاج في تحضرهم، ذلك "لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم من غاياتها من الرفه والكسب، تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر. فينزلون المدن والأمصار

ويتأهلون"،[١] "ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر ...".[٢] كما ساهمت الرغبة في نشر الدين الإسلامي ومحاربة الفرق الضالة وحراسة الثغور في ظهور الرباطات التي تحول الكثير منها إلى مدن قائمة الذات.

إذا كان تاريخ المغرب القديم لا يخلو من آثار التمدين، فإن مرحلة الفتح الإسلامي وما تلاها تميزت بإرساء الدعائم والأسس التي أمدت تلك المراكز بأسباب النمو والإزدهار، حيث ربط المغرب بالسودان ربطا لم يسبق له مثيل، فنشطت التجارة الصحراوية تدريجيا، ومن ثم بدأ إعداد البنية التحتية اللازمة لنجاح تجارة الذهب. هكذا قام عبد الرحمن بن حبيب مثلا بحفر وتهييء العديد من الآبار على طول الطريق المؤدية إلى السودان الغربي،كما اهتم الفاتحون المسلمون منذ البداية بمد قنوات المياه،[٣] ويذكر إبن عذاري[٤] أن عقبة بن نافع قام بتأسيس مسجد بإيجلي وآخر بمدينة درعة، ويرجع البكري[٥] تعمير المجال الممتد من وادي السوس إلى وادي ماسة مسيرة يومين إلى عبد الرحمان بن مروان.

---

(١) – عبدالرحمان بن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، ٢٠٠٢م، ص.٣١٨.

(٢) – إبن خلدون، **المقدمة**، ص.١١٤.

(٣) – البكري، **المسالك**، ج.II، ص. ٣٤٣.

(٤) – **البيان المغرب**، ج. I، ص.٢٧.

(٥) – البكري، **المسالك**، ج.II ، ص ٣٤٨

عملت الكيانات السياسية بمختلف توجهاتها السياسية والمذهبية على تدعيم المجهودات التي ابتدأها الفاتحون، فشيدت عدة مدن وانتعشت أخرى كانت في طور الإحتضار، وأنشأت قواعد سلطانية استقطبت الإهتمام، ساعد على ذلك عوامل مختلفة اعتبرت ركائز التقدم الحضري والتطور المديني بالمغرب ما بين ق.١-٥هـ/٧-١١م:

١- **العامل الاقتصادي** : ذكرنا سابقا بأن الفتح الإسلامي تلته حركة اقتصادية مهمة في الغرب الإسلامي عموما والمغرب بصفة خاصة. فقد تطورت الفلاحة وتمكنت من تحقيق فائض الإنتاج في مجموعة من المواد التي تصلح للتبادل التجاري، وهكذا ظهرت عدة أسواق، سرعان ما تطورت إلى مدن شكلت نقطة وصل بين منتوجات البادية والمدينة. فالفتح دفع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية إلى تحضر السكان وتطور احتياجاتهم المعاشية، كما أن النمو الفلاحي والحرفي والتجاري الذي عرفه المغرب خلال هذه الفترة وما تلاها ساعد تدريجيا على الإنتقال والتحول إلى العمران الحضري وتوسيعه، وبزغت مدن تجارية بامتياز، اعتمدت على ترويج منتوجات محلية فلاحية وصناعية، أو منتجات وسلع ومواد مدن بعيدة ...

برجوعنا إلى المصادر التاريخية، وخاصة كتب الجغرافيا والرحلات، يتبين مدى أهمية ودور الفلاحة في نشأة وتطور المدينة المغربية، فقد ساهمت بشكل ملحوظ في عملية التمدين خاصة في المجال المتوسطي، وكان العمران الحضري كثيف العدد ومتنوعا ومنتشرا في أغلب مناطق هذا المجال،[1] وهكذا توطدت العلاقة بين الإزدهار الفلاحي والإتساع العمراني، بغض النظر عن أي ظروف أخرى، بحيث إن "الإندماج مع الإقتصاد الريفي والأنشطة التجارية المواكبة له كان مستقلا تماما

(١) - بزاوي، المدن و التجارة..، ص.٤١.

عن بيروقراطية الدولة، فالمدن التي طورت هذا الإندماج محليا كانت هي المدن التي استطاعت أن تصمد، وربما أن تنمو في مراحل اندحار الأسر الحاكمة ".[١]

إن توفر الإنتاج الفلاحي يخلق رواجا اقتصاديا يعمل على تنشيط التجارة القريبة المدى ويحرك الدورة الاقتصادية، مما يسهم في توسيع التبادل، وبالتالي توسيع أنشطة المدينة لإنتاج مواد التبادل مقابل المواد الفلاحية، وهكذا يتوسع النشاط الحرفي وتتوفر فرص العمل، بل ويزيد عدد ساكنة المدينة، وينتج عن كل هذا استبحار المجال الحضري وكثرة الإستقرار، كل ذلك يدخل بدوره في إطار تحريك عجلة الدورة الاقتصادية التي تدعم وتقوي التجارة الخارجية ...[٢]

بمجرد أن حقق المغرب نوعا من الإستقرار والأمن مع مجيء الفتح الإسلامي، نمت الفلاحة والتجارة الداخلية شيئا فشيئا، بل تعدى هذا النمو المستوى الداخلي إلى مستوى خارجي تمثل في التجارة البعيدة المدى، والتي كان لها الأثر الكبير في تطور الظاهرة الحضرية خلال الفترة المدروسة، فالطرق التجارية مثلت الشرايين التي تمد المدن، وخاصة تلك التي تقع عليها، بفرص النمو والإزدهار، رغم أن المصادر لم تمدنا إلا بمعلومات يغلب عليها طابع التعميم والإنتقاء.

تميز البكري بتركيزه على ظاهرة الأسواق، بل إنه ربط نشاط كثير من المدن بمدن أخرى لها ارتباط وثيق بالتجارة الخارجية، وخاصة التجارة مع بلاد السودان، وهكذا فنكور شيدت في موضع قريب من سوق مسكونة،[٣] كما أن موقعها

---

(١) - james L. Bonne et autres, ***Archeological*** .. p.٦٣٩، نقلا عن بزاوي، ص٤٢.

(٢) - بزاوي، **المدن و التجارة**...، ص.٣٥.

(٣) - **المغرب**، ص.٩٢.

الإستراتيجي في السواحل المتوسطية بوأها لتنسج علاقة متميزة مع العالم الخارجي وخاصة الأندلس، وساعدها في ذلك أيضا هيمنتها على كثير من المراسي.

كان موضع سجلماسة بدوره عبارة عن منبسط "يجتمع فيه البربر وقتا من السنة يتسوقون لقرب، فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت"[1] بفعل توسع مبادلاتها التجارية، حيث أصبحت تمثل باب المغرب على السودان، ومتدى تجاريا يقصده التجار من الآفاق، ولهذا وصفها إبن حوقل[2] بأنها تتوفر على "تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباحا متوافرة، ورفاق متقاطرة ... ولقد رأيت بأودغشت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخرسان فاستطرفت". وهذا بالطبع سيسهم بشكل أساس في تطور مدينة سجلماسة، وسيجعلها تنمو بسرعة وفي ظرف وجيز، ولعل مدن الجنوب المغربي ارتبطت في نموها وازدهارها عموما بتجارة القوافل الصحراوية.

إن موقع فاس المهم من الناحية الاقتصادية كان من أسباب اختياره من طرف إدريس الثاني لتشييد قاعدة مملكته الفتية، والتي استطاعت، ولو بعد حين، أن تفرض نفسها كأهم الحواضر المغربية رغم الأحداث والظروف العصيبة التي مرت

---

(١) - المغرب، ص.١٤٩.

(٢) - صورة الأرض، ص.٩٣-٩٤.

بها، وذلك اعتمادا على مؤهلاتها الذاتية وعلاقاتها المتميزة، سواء مع محيطها القريب، أو مع المدن والمناطق الداخلية، أو حتى مع مختلف الإتجاهات الخارجية.(١)

مثلت الموارد المنجمية بدورها عاملا اقتصاديا في التطور الحضري بالمغرب، حيث شجعت المبادلات التجارية، وزكت صادرات بعض المدن وموقعها ضمن باقي المؤسسات الحضرية، فتامدولت رغم أنها قامت بوظائف متعددة : عسكرية، تجارية، فلاحية ... إلا أن استغلالها المعدني وخاصة معدن الفضة يبقى أهم الوظائف على الإطلاق، إذ عليه قام أساسها،(٢) ولذلك فهي لم تؤسس نتيجة تأثير الطرق الصحراوية، بل لوجود معدن الفضة بجبل عدانة، والتي دعت الضرورة لاستغلاله لحاجة الأدارسة إلى مثل هذا المعدن الثمين.(٣)

إذن من خلال ما سبق، يتضح مدى مساهمة العامل الاقتصادي في نشأة وتطور الظاهرة الحضرية بالمغرب خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى مرحلة المرابطين.

٢- **العامل السياسي** : إن الحديث عن الفعل الاقتصادي لا يعني ضمور التأثير السياسي، فالقوة المالية والمادية هي التي تسمح لأي سلطة بتحقيق الأمن وتدبير المجال وكذلك بناء المدن. وهكذا فالأحداث السياسية التي تلت الفتوحات

---

(١) - ينظر بتفصيل : إدريس الشنوفي، **النشاط التجاري لمدينة فاس في العصر المريني**، د.د.ع.م. في التاريخ، كلية الآداب- سايس، فاس، ٢٠٠٠-٢٠٠١، ص.٥٧- ٨٦.

(٢) - Bernard Rosenberger : Voir ,"..Tamdult", p .١١٨-١٢٦,

(٣) - أمليد، **المدن الإدريسية**، ص.٢٢٥ / Bernard Rosenberger , exploitations miniéres et les centres métalillurgiques du Maroc : essai de carte historique, *Revue de géographie du Maroc*, n°p١٧, pv٩.

الإسلامية، كان لها الدور الكبير في تطور ظاهرة التمدين بالمغرب، وخاصة ابتداء من أواسط ق.٢هـ/٨م، حيث تأسست مجموعة من الكيانات السياسية استأثرت بالسلطة والنفوذ في جهة من الجهات، فمن إمارة بني مدرار التي تأسست سنة ١٤٠هـ، إلى إمارة بني صالح وبورغواطة اللتين أسستا في فترة مقاربة، ثم إمارة الأدارسة التي أنشئت في ١٧٢هـ. وهذا لم يقتصر على المغرب، بل إن تطور المدن الإسلامية الأولى عموما ارتبط بتلك التي عرفت تركز تدبير السلطة والجيش.[١]

إذن فطبيعي أن تنشئ كل هذه الإمارات قواعد لها لإعلان هويتها وإثبات وجودها السياسي، وحتى يتسنى لهذه القواعد الإضطلاع بمهام سياسية قبل كل شيء، وهذا ما تجلى بوضوح في العواصم الكبرى من مثل سجلماسة وفاس ومراكش ...

إن العديد من المدن المغربية والإسلامية عموما في العصر الوسيط، قد ارتهن إنشاؤها وتعميرها بالفعل السياسي وتطور عبر علاقة جدلية وطيدة به، فالإمارات عند تأسيسها لمدينة معينة تعتمد توزيع أحيائها على القبائل الحليفة ... ثم تختلط هذه الساكنة مع عناصر جديدة تأتي عبر هجرات من مناطق أخرى للمشاركة في الحياة العامة للمدينة، وهكذا فالتطور الذي تعرفه المدينة يرتبط بالتطور العام الذي تشهده في أكثر من مجال،[٢] ومن أهمه المجال السياسي بالطبع.

---

(١) Pièrre Guichard, " les villes islamiques aux siècles de leur histoire : une hypothèse récente", in *Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb*, Actes recueillis et préparés par Patrice Cressier et Mercedes Gracia-Arenal, avec la collaboration de Mohamed Méouak, Madrid, ١٩٩٨, p.٤٢ / Bernard Rosenberger, les premières villes islamiques du Maroc : géographie et fonctions, in *Genèse de la ville islamique*..., p.٢٣٥, ٢٤٦.

(٢) - حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها**، ص.١٢٩-١٣٠.

كان الخوارج في طليعة الثائرين ضد الحكم الأموي بالمغرب، كما كانوا من السباقين إلى التعبير عن كيانهم السياسي، وهو ما دفعهم إلى إنعاش الحياة الحضرية بأقصى الجنوب، إذ يشير أحد الباحثين[١] إلى أن ظاهرة التمدين قد تطورت بفضل الجهود التي قام بها هؤلاء، وذلك إثر إرسائهم لبعض الممالك الصغرى التي ارتكزت على تجارة القوافل.

وقد تم اختطاط سجلماسة سنة ١٤٠هـ إثر اضطراب الأوضاع السياسية بالمغرب، ونقض الخوارج الصفرية لطاعة الأمويين، وأصبحت المدينة فضاء سياسيا وكيانا ماديا استقطب بربر مكناسة للدخول في المذهب الصفري،[٢] بالإضافة إلى جماعات من السودان وقبائل صنهاجة الذين وجد فيهم أبوالقاسم سمكو (مدرار) ضالته في مساعدته على إنشاء هياكل سلطته.[٣] وقد قصدها أيضا أتباع الصفرية فرارا من بطش وتنكيل ولاة العباسيين،[٤] وخاصة المهلب بن أبي صفرة الذي اشتهر بمحاربته وتعقبه للخوارج، كما وجد بها اليهود الذين عرفوا بمهنة البناء.[٥]

الذي لا شك فيه، أن هذا الإقبال البشري لاستيطان وتعمير سجلماسة سيساهم في تزايد الفعل السياسي لبني مدرار، ومن ثم اتساع قاعدتهم الناشئة، التي ستصبح

---

(١) - M.Abitbol, "Juifs Maghrébins et commerce transsaharien : du XIIIe au XVe siècle", in *revue française d'histoire d'outre-mer*, T. LXVI, p.١٧٨-١٧٩.

(٢) - الناصري، **الإستقصا**، ج.I، ص.١٦٩.

(٣) - محمود إسماعيل، **الخوارج في بلاد المغرب**، ص. ١١٥.

(٤) - محمود إسماعيل، الخوارج، ص. ١١٩.

(٥) - البكري، **المغرب**، ص. ١٤٨-١٤٩.

من أكبر وأشهر المدن المغربية، فالإدريسي[١] مثلا يصفها بأنها "مدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر..."، وهذا لن يتحقق لولا سيادة الأمن والاستقرار.

وكانت نكور من القواعد التي أسست بالمغرب في مرحلة الدول المستقلة، وقد شرع في بنائها إدريس بن صالح، إلا أنه لم يكملها بسبب وفاته المبكرة،[٢] ليتولى الأمر من بعده إبنه سعيد الذي اختطها ومدنها واتخذها قاعدته وحاضرته،[٣] والذي قام أيضا بتعميرها عبر جلب بعض القبائل البربرية المجاورة إليها،[٤] وقد وصفها البكري[٥] فقال : "... ومدينة نكور بين رواب منها جبل يقابل المدينة يعرف بالمصلى وبها جامع على أعمدة من خشب العرعر وهو الأرز أكثر خشبها. ولها أربعة أبواب : في القبلة باب سليمان وبين القبلة والجوف باب بني ورياغل، وفي الغرب باب المصلى، وفي الجوف باب اليهود، وسورها من اللبن، وبها حمامات كثيرة وأسواق عامرة مفيدة، وهي بين نهرين أحدهما نكور ومخرجه من كزناية من جبل بني كوين والثاني نهر غيس منبعته من بلد بني ورياغل ... ويجتمع نهر نكور وغيس بموضع يقال له أكدال ثم يتشعب هناك جداول، وفي طرف هذا الموضع رباط نكور، وعلى نهر غيس بني سعيد بن صالح مسجدا على صفة مسجد الإسكندرية بمحارسه

---

(١) - **نزهة المشتاق**، ص.٢٢٥.

(٢)- إبن خلدون، **العبر**، ج.VI، ص.٢٨٤.

(٣) - **العبر**، ج VI، ص.٢٨٤/ البكري، **المغرب**، ص.٩١-٩٢.

(٤) - **المغرب**، ص. ٩٢.

(٥) - **المغرب**، ص.٩٠-٩١.

وجميع منافعه، وعدوة غيس هذه يقال لها تاكراكرى، وهي منيعة، وفيها يتناتج كراع آل صالح، وبين مدينة نكور وبين البحر خمسة أميال ...".

إن قيام إمارة بني صالح سيحدث بالتأكيد تحولا نوعيا على المستوى العمراني وسيساعد على تعزيز ظاهرة التمدين بمنطقة الريف أو بصفة أدق ما كان يطلق عليه ببلاد نكور، يقول اليعقوبي[١] : "... واسم مدينته (صالح بن سعيد) العظمى التي ينزلها باكور (أي نكور) ... ومملكة صالح بن سعيد الحميري مسيرة عشرة أيام في عمارات وحصون وقرى ومنازل وزرع وضرع وخصب وآخر مملكته يقال لها مرجانة على جبل تحتها أنهار وأودية وعمارات ...".

شيدت مدينة فاس بدورها لتكون مقرا للحكم الإدريسي تصدر منه القرارات السياسية الحاسمة، بعدما حاول إدريس الثاني التخلص من سلطة أوربة، وربما لتكون تجمعا يستقطب خصوم الأمويين والعباسيين. والمهم أنه في محرم من افتتاح سنة ١٩١هـ "خرج (إدريس الثاني) يتصيد ويرتاد لنفسه موضعا يبني فيه ما قد عزم عليه فوصل إلى وادي سبو حيث هي حمة خولان فأعجبه الموضع لقربه من الماء ... فعزم على أن يبني به المدينة وشرع في حفر الأساس وعمل الجير وقطع الخشب وابتدأ بالبناء ...".[٢]

على أي، اهتم إدريس بإنشاء مدينة تكون مركز الدعوة إلى الإسلام وإلى مبايعة آل البيت، وفعلا فقد "كان تأسيسها من أبرز أعمال الدولة وأبعدها أثرا في تاريخ

---

(١) – اليعقوبي، كتاب البلدان، ص.١٠٨.

(٢) – القرطاس، ص.٣٧.

الغرب الإسلامي"،[١] وهو يدخل كذلك في إطار التوجه الجديد للأدارسة، والمتمثل في بناء سلطة سياسية قارة في مجال محدد، تعتمد على مؤسسات الجيش والإدارة ولو في شكلها الأولي البسيط.[٢]

لم يقف المجهود التمديني للأدارسة في تأسيس فاس، بل تعداه إلى تأسيس مدن كثيرة أخرى خاصة في منطقة الشمال الغربي، حتى تفوقوا بها على من سواهم. فاتباع محمد بن إدريس الثاني سياسة "اللامركزية"، ورغم ما أفرزته من مشاكل سياسية وصراعات بين إخوته، إلا أنها ساهمت في تنافس هؤلاء في تشييد وبناء المدن، باعتبارها المكان الأنسب لممارسة السلطة وضبط المجال وتركيز النفوذ في المناطق المجاورة.

إن عملية انتشار الأدارسة في الشمال الغربي مثلا، واكبت التطورات السياسية في المغرب، ونتج عنها حضاريا تعمير المنطقة بتأسيس عدة مدن،[٣] وعموما كانت المدن الإدريسية -وخصوصا في مرحلة ضعفهم- تقوم بوظيفة "اللجوء السياسي".[٤] وهكذا بنوا البصرة التي اعتبرت ثاني المدن الإدريسية أهمية بعد فاس، وكذلك أصيلا التي أنشئت في الفترة نفسها، بالإضافة إلى مدن أخرى من مثل زلول وجرمان وتاوارت وحجر النسر والأقلام ...[٥] وباطلاعنا على "المغرب"[٦] نتعرف على دور

(١) - عبدالله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، ط.٢، ٢٠٠٠، ج.II، ص.٢١.

(٢) - بزاوي، **المدن والتجارة..**، ص. ٦٦.

(٣) - محمد عمراني، **الشرف والمجتمع والسلطة السياسية**، ص.٥٩.

(٤) - أمليد، **المدن الإدريسية**، ص.٢١٦.

(٥) - ينظر إبن حوقل، ص.٨٦-٨٩.

(٦) - البكري، خاصة ص.١٠٩-١١٥.

الفعل السياسي الإدريسي في تطور شبكة المدن المغربية، حيث برزت إلى الوجود مدن كدمنة وأفتس وتشومس ويحاجين وإصادة ... ولعبت دورا لا يستهان به في التاريخ السياسي لتلك المرحلة، مثل حجر النسر التي بنيت بهدف سياسي، إذ انتقل إليها الأدارسة بحكمهم بعد أن شيدت لتكون ملجأ محصنا لهم، وذلك إثر عنف التدخل الفاطمي والأموي بالمغرب. ورغم الظرفية العسيرة والصعبة، فقد استطاعت أن تتحكم في شبكة مدن أقصى الشمال الغربي للمغرب كطنجة وسبتة وقصر مصمودة وتطاوين وأصيلة وتشمس وقصر كتامة والبصرة وكرت وزلول وتاوريرت وأقلام وماسنة،[١] لكن هذا التحكم تم قبل أن تعدل وطأة التدخل الخارجي الخريطة السياسية لصالح العصبية الزناتية. ومدينة زهجوكة قاعدة إبراهيم بن محمد، التي انطلق منها هو وأبناؤه "وملكوا دار طنجة إلى حد سبتة ".[٢] ولم يعدم الجانب السياسي دورا في الجنوب، فهذا عبدالله بن إدريس الثاني كان واليا من قبل أخيه محمد على سوس الأقصى، وبنى على مشارف الصحراء مدينة تامدولت، وقد مكنها موقعها الإستراتيجي والمحصن من تنشيط التجارة الصحراوية.

إن التحولات السياسية التي عرفها المغرب في ق.٤هـ/١٠م دعمت مركز الزناتيين، وخاصة المغراويين الذين هيمنوا على كثير من المناطق والمدن، يقول إبن خلدون : "... استفحل أمر زيري بالمغرب، ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه، ونقل إليها ذخيرته ...".[٣] وبالمعنى نفسه وأوضح يشير إبن

---

٢٥٠ - Patrice Cressier, "Hagar al-Nasr" , p. ٣٠٩-٣١٢.

(٢) - البكري، ص.١١٤.

(٣) - العبر، ج.VII ، ص.٤٣.

أبي زرع[١] إلى أن زيري بن عطية "بنى مدينة وجدة، وشيد سورها وقصبتها وركب أبوابها، وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدته ودار ملكه لكونها واسطة بلاده ...".

من خلال النصين السالفين نستخلص أن العامل السياسي كان حاسما في إنشاء قاعدة وجدة وربما للإنطلاق منها نحو توسيع نفوذه شرقا من السوس الأقصى إلى طرابلس، وبالتالي إحياء أمجاد المملكة الزناتية لبني خزر.[٢] فإنشاء القاعدة كان يسهل ضبط السلطة للمجال، ويتيح لها المزيد من تركيز نفوذها واستبدادها. ولعل هذا ما نلحظه بالنسبة للمرابطين الذين اتخذوا من مراكش دار ملك لهم. "فمدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب ... وموضع العلم منه ... ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطنا ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء. ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ...".[٣]

إن بناء مراكش قد صب في استراتيجية المرابطين الذين كانوا يهدفون إلى إبقاء ارتباطهم بمواطنهم في الصحراء، حيث الدعم البشري اللازم للتحكم السياسي وبسط النفوذ بالمغرب، ثم لمراقبة المصامدة وجبل درن "لكثرة من يعمره منهم".[٤]

بالإضافة إلى مراكش ركز المرابطون اهتمامهم العمراني بالجنوب، فأنشأوا عدة مدن، إذ بعد سيطرتهم على سجلماسة أسسوا مدينة "تبلبلا" "لتسهيل عملية

---

(١) – **القرطاس**، ص.١٣١.

(٢) – التازي، "زيري بن عطية وسياسته الخارجية"، ص.٢٢٧.

(٣) – **المعجب**، ص. ٢٥٧.

(٤) – **الإستبصار**، ص.٢٠٩.

توسعهم بالمغرب"،[١] وكذلك مدينة تاودا التي "كانت مدينة كبيرة أسسها الملثمون ليملكوا منها جبل غمارة .."."[٢]

إذن يبدو أن ظهور أهم المدن المغربية تزامن مع انبعاث سلطاتها، باعتبار أن هذه المدن هي قبل كل شيء مراكز سياسية، أو مراكز لممارسة السلطة فضلا عن أنشطة أخرى. والتي برز دورها العسكري والسياسي بحدة منذ العهد المرابطي، مما يفسر اهتمام المصادر بالتحصينات والأسوار...[٣]

كان من أبرز نتائج قيام إمارات ما بعد الفتح سيادة الأمن والاستقرار، وانتعاش الإقتصاد خاصة الفلاحة والتجارة، وهو ما دعم إزدهار الحركة العمرانية بقيام مدن جديدة.[٤] ولا ننسى الدور الجهادي والديني في نشأة بعض المدن. فبنو يفرن لما أجلاهم زيري بن عطية المغراوي من فاس مثلا، أسسوا مدينة سلا واتخذوها قاعدة لجهاد بورغواطة، خاصة في عهد أبي الكمال تميم اليفراني.[٥] وقد بنيت كرباط كان المسلمون يرابطون فيه لقتال بورغواطة بأعداد قد تصل أحيانا إلى مائة ألف مرابط.[٦]

---

(١) – حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص.١٩٤-١٩٥.

(٢) – **الإستبصار**، ص.١٩٠.

(٣) – "Les premières villes islamiques du maroc"Bernard Rosenberger, , p.٢٤٧.

(٤) – محمد نصيح، "محددات نشأة المدينة وتطورها بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط"، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات الآداب II – إبن مسيك، الدارالبيضاء، ص.٨٠-٨١.

(٥) – **العبر**، ج.VII، ص.٢٩.

(٦) – إبن حوقل، ص٨٢.

ساهم تقلد المرابطين للسلطة في انتشار الرباطات والحصون في مختلف أنحاء المغرب، والتي لا شك أنها ساعدت على تطور ظاهرة التمدين. فالمرابطون كانوا ينظرون إلى قبائل غمارة بأنها ضالة ومنحرفة، لذلك بنوا عدة حصون وقلاع لجهادها مثل حصن تاودا أو بني تودة وحصن أمرجو ... وحسب الوقائع التاريخية فقد قامت هذه الحصون بدور أساس في فتح بلاد غمارة وتطهيرها من الفساد المنتشر بها،[1] وسرعان ما تحول بعضها إلى مدن كبرى، إذ في هذا المضمار يقول صاحب الإستبصار[2] : "... وكانت تاودا مدينة كبيرة، أسسها الملثمون ليملكوا منها جبل غمارة، وكان يسكنها ولاة المغرب بالعسكر، وكانت في أيامهم معمورة بالمباني الحسان والقصور المنيعة ...".

هكذا تظافرت عدة عوامل في نشأة وتطور المدينة المغربية، وخاصة منها العوامل السياسية التي كانت سببا مباشرا في بروز المدن القواعد، ثم باقي المدن بما حققته من أمن واستقرار،كما لعبت العوامل الاقتصادية دورا لافتا، حيث ظهرت عدة مدن ارتبطت بالتطور الاقتصادي العام الذي عرفه المغرب في الفترة المدروسة، سواء في جانبه الفلاحي والحرفي أو في جانبه التجاري خصوصا ما يرتبط بالتجارة مع السودان، إضافة إلى الإستغلال المنجمي، دون أن ننسى الدور الديني والجهادي عموما.

(١) – أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ص.٣١٧.

(٢) – مجهول، **الإستبصار**، ص.١٩٠.

ثانيا : المدينة والموقع

*****

أولا لابد من تحديد الفلسفة والتصور الذي يؤطر التدبير العمراني للمدينة الإسلامية عموما. فعملية تخطيط المدن أو حتى التعامل مع الموجود منها تدبيرا وإدارة، موجهة لتحقيق مجموعة أهداف تسمى "المصالح"، وفي غياب أي مصلحة منها يختل أس من أسس كيان المدينة. ولعل من أهم هذه المصالح اختيار الموقع[١] والموضع،[٢] ذلك لأنهما يمثلان "النقطة الحساسة الحيوية ... وأهم عنصر جغرافي ترتبط به حياة أو موت المدينة "،[٣] فأسس الموقع والموضع الطبيعية والاقتصادية والأمنية هي صمام الأمان لنشأة وتطور المدينة وقيامها بوظائف ذات أهمية، إذ أن ذلك يعتبر من العوامل الكبرى التي تطبع حياة المجتمعات وتتحكم في تواريخ المدن.[٤]

والملاحظ أن العديد من المدن المغربية والإسلامية قامت على أنقاض مدن قديمة، مما أسقط بعض المستشرقين في وهم أن المدينة الإسلامية - ومن ضمنها المدن المغربية بالطبع- قلدت هذه المدن التي سبقتها فقط، ولم تأت أبدا بجديد.[٥] ويجيب

---

(١) - الموقع هو وضع المدينة بالنسبة للمعطيات الجغرافية أو الإقتصادية التي من شأنها أن تؤثر في تطورها وتحديد مكانتها داخل الشبكة الحضرية المحلية أو العالمية.

(٢) - الموضع هو المجال الذي تقام عليه المدينة بما يتوفر عليه من خصائص ومؤهلات.

(٣) - مصطفى عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية**، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات ٢٩٥، ١٩٨٢، ص. ٢٠٧.

(٤) - عبد الوهاب بنمنصور، "أصيلة عبر التاريخ"،ص. ٧٦.

(٥) - عثمان عبدالستار، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، ع.١٢٨، ١٩٨٨، ص.٣٦.

ذ. عبد العزيز بنعبد الله على ذلك بقوله: "... وكان الطابع الحضاري يعوز المغرب لأن المدن الأزلية المتهدمة لم تكن من قبل حواضر متماسكة، بل مجموعة دساكر وقصور ...".[١]

إن المدن القديمة التي نشأت بالمغرب كانت عبارة عن محطات تجارية دشنها الفنيقيون ثم القرطاجيون، أي أنها وجدت على السواحل باعتبارها المعالم الأولى لتطور غير فلاحي ويتميز بنوع من الأهمية،[٢] ويمكن أن نلاحظ أن مختلف مواقع المراكز الحضرية كانت توجد في الجهة الشمالية، وخاصة الغربية منها، وأن أغلب هذه المراكز توجد على الواجهة البحرية الأطلسية، ربما لأنها توفرت على مناطق داخلية تسمح بتموين المدن وبمدها بموارد التصدير والتجارة أكثر من الواجهة المتوسطية.[٣]

مع الفتح الإسلامي انتقل المغرب من دورة تاريخية إلى أخرى، وانتقلت معه مواقع المدن إلى دورة تاريخية إسلامية سادت فيها حواضر الداخل، مولية وجهتها نحو العالم الإسلامي ومرتبطة بمسالكه التجارية،[٤] وتغير الوضع القديم بشكل كبير، فلم تعد المواقع "مقتصرة على السواحل، بل أصبحت المناطق الداخلية في طريق التشكل، بحيث أصبحت تلك المناطق تعتبر قاعدة الحكم الإدريسي بعاصمته الداخلية التي تتوسط البلاد، وفي نفس الوقت تم الوصل بين الشمال والجنوب

(١) – **تاريخ المغرب**، مطبعة الجامعة، البيضاء، ج. I، ص.٩٣.

(٢) – هـ. بيجن، "تنظم المجال المغربي عبر التاريخ"، ص.٤٤.

(٣) – هـ. بيجن، ص٤٥.

(٤) – محمد دروا، **المدينة في تاريخ المغرب**، ص.٣٦٧.

اللذين خضعا نسبيا للحكم الإدريسي".[١] وهكذا برزت مجموعة من المدن إما في مواقع محصنة حيث تأخذ طابعا عسكريا، أو في مجالات التبادل التجاري ومحاور الطرق التجارية، أو في المناطق الفلاحية، والتي لها ارتباط بمواقع الإنتاج والإستهلاك، ثم مدن تمتد في مواقع الإستغلاليات المعدنية مع ارتباطها بالمحاور التجارية.[٢]

إن طبيعة وخصوصية المرحلة التي مر منها المغرب بعد الفتح الإسلامي كرست الإرتكاز المديني بالداخل والجنوب، فقبل فاس والمدن الإدريسية عموما تأسست مدينة سجلماسة في "موسطة الصحراء" بأقصى المناطق الجنوبية، وبعدها أنشئت مراكش حاضرة المغرب الإسلامي، مؤكدة بذلك الدور المتنامي للمجال الداخلي والجنوبي للمغرب.

نظرا لخطورة وأهمية المواقع والمواضع بالنسبة للمدن، فقد أفاضت المصادر التاريخية في ذكر مستلزماتها، وتعداد شروطها وإبراز مزاياها. وباستقرائها نستخلص أن اختيار الموضع والموقع عموما يرتكز على ثلاثة أسس :

- **الأساس الطبيعي** بما يعنيه من وفرة المياه واعتدال المكان وطيب الهواء.
- **الأساس الاقتصادي** المتمثل في القرب من المرعى والمزارع وأماكن الإحتطاب والأسواق ...

(١) - الكبير بزاوي، **المدن والتجارة والسلطة السياسية**، ص.٥٨.

(٢) - بزاوي، **المدن و التجارة..**، ص.٤١.

• **الأساس الأمني** وذلك بتوفر التحصينات الطبيعية كالحافة والجبل أو البحر ... أو ببنائها كالأبراج والحصون والأسواق ... وبوجود الظهير، أي القبائل التي تحمي المدينة وخاصة الثغرية منها، ثم ضرورة وجود السلطة.

في الواقع، فدرجات توفر وانصهار هذه الأسس في المدينة، هي التي تحدد مستوى نضجها وسلم ارتقائها ... ولعل هذا ما حصل لمدينة فاس مثلا، حيث أصبحت قطب رحى مدن المغرب،[١] وهيأ لها موقعها وموضعها ظروف النجاح أكثر من غيرها، إذ أن "اختيار موقعها يدل على حنكة وتجربة ومعرفة مسبقة بالمنطقة ".[٢] والسؤال المطروح : ماذا عن هذه الأسس بالنسبة للمدينة المغربية عامة ؟!

١ – **الأساس الطبيعي** : إن الظروف الطبيعية تفرض نفسها على المدينة لذلك كان لزاما على الإنسان أن يأخذها بعين الاعتبار، بل ويحاول التأقلم معها، مثلا فالماء اعتبر من أخطر مشاكل المغرب في العصر الوسيط، خصوصا مع عدم قدرته على التحكم في موارده المائية،[٣] وإننا نلاحظ أن المدن تحاول بإصرار أن تظل قريبة من مصادر الماء، وبمعنى آخر فإن توفر الماء يجذب المدن إليه.

---

(١) – تنظر المصادر الوسيطية من مثل : اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص.٣٥٧ – ٣٥٨ / الإدريسي، ج. I، ص. ٢٤٦ / إبن سعيد المغربي، **كتاب الجعرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ١٩٨٢، ص.١٤٠ ومابعدها / القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب الخديوية،المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٥، ج. ٧، ص. ١٥١ / **القرطاس**، ص. ٣٢ وما بعدها / العمري، ص.١١٤ وما بعدها / الحميري، ص. ٤٣٤–٤٣٥، إلخ ...

(٢) – العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج. II، ص.٢١.

(٣) – هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ج. II، ص.٢٩١.

ولم يقل طيب الهواء أهمية عن وجود الماء، فهو له دور مهم وأساس في تطور المدن ونموها، ولهذا حرص المسلمون في المشرق والمغرب أن تكون مدنهم في موضع صحي خال من الحشرات والهوام ... وأن تكون مناظرها مما ترتاح له النفس،[١] "ومما يراعى ... طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناقع (مستنقعات) متعفنة أو لمروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيونات الكائن فيه لامحالة ... والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب ...[٢] بل إن ذلك يؤدي إلى خراب المدن واندثارها، ولهذا فلربما ارتبط فراغ منطقة سهل الغرب من المدن بفساد المناخ لكثرة المستنقعات،[٣] والأمر كذلك بالنسبة لمدينة تشمس التي يتسم هواؤها بالفساد.[٤]

أسست نكور في موضع يتميز بوفرة الماء، حيث كانت تقع بين نهري نكور وغيس، فالأول ينبع من كزناية من جبل بني كوين، والثاني منبعه من بني ورياغ، ويجتمع النهران في موضع يقال له أكدال،[٥] ثم يفترقان إلى البحر الأبيض المتوسط.[٦] وقد شكلت نكور نقطة مركزية واستراتيجية في السواحل المتوسطية بفعل موقعها المتميز.

---

(١) - إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص.٢٣٧.

(٢) - إبن خلدون، **المقدمة**، ص.٣٢١.

(٣) - أحمد قدور، "تأثير المدن الكبيرة على الشبكة الحضرية في العهد الموحدي، نموذج المغرب الأقصى"، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، منشورات كلية الآداب - ابن مسيك، البيضاء، ص.١١٢.

(٤) - **الإستبصار**، ص.١٠٤.

(٥) - البكري، ص.٩٠ / **العبر**، ج.VI، ص.٢٨٤.

(٦) - **العبر**، ج. VI، ص.٢٨٤.

كما بنيت سجلماسة في موضع هضبة مرتفعة عن مستوى فيضانات نهر زيز،[١] وكانت لها مزارع كثيرة تسقى من هذا النهر،[٢] وفي فترة متأخرة نسبيا شيدت سقايات عديدة يجلب ماؤها منه بواسطة الناعورات التي تقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة.[٣] وقد حالف التوفيق اختيار موقعها، حيث ازدهرت هذه المدينة، وقامت بوظيفة تجارية مهمة، بل اعتبرت "بوابة السودان"، ولن يتأتى لها ذلك لولا موقعها الذي يتوسط عدة مناطق داخلية وخارجية حتى غدت مدينة لها مكانتها بين مدن المغرب الوسيط.

أغلب المدن الإدريسية سواء التي شيدوها، أوتلك التي ركزوا جهودهم على تجديدها وترميمها، تقع على ضفاف الأنهار والعيون ...[٤] فالبصرة مثلا تستقر جغرافيا على هضبة تشرف من ناحية الغرب على وادي مدة (Mda)،[٥] كما أنه رغم زعاف مائها، فإنها تتوفر على كثرة العيون والآبار المحيطة بها،[٦] إضافة إلى وصف المصادر لموقعها بأنه خصب التربة ووافر الخضرة ونقي الهواء.

تنسحب هذه المواصفات على جل المدن التي أسسها الأدارسة، حيث جاء اختيار موقعها مقاربا للمقاييس والشروط والأسس التي اعتمدها الفكر العمراني الإسلامي في اختيار مواقع المدن، ولعل هذا ما يتجلى بوضوح في قاعدتهم الكبرى

---

(١)- اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص.١١٠.

(٢) - **الإستبصار**، ص. ٢٠١-٢٠٢ / الإدريسي، ص. ٢٢٦.

(٣) - الوزان، ص. ١٢٧.

(٤) - أمليد، **المدن الإدريسية**، ص.١١٧.

(٥) - رضا، "البصرة"، ص.١٥/ Daniel Eustache, El-Basra, p.٢٢٨

- (٦)البكري، **المغرب**، ص.١١٠ / **الإستبصار**، ص.١٨٩ / الحميري، ص. ١٠٨..

فاس. ذلك بأن الأسس الطبيعية وغير الطبيعية توفرت بهذه المدينة بصورة تكاد تكون مثالية كما وصفتها المصادر، فقد ضمت مزايا عديدة منها "نهرها المعروف بنهر الجوهر الذي بأعلاها بنحو ستة أميال، وهو يخرج من نحو ستين عنصرا، جلها ينبعث من جهة القبلة، وبعضها من جهة الغرب مسامتا لمشرق الشمس، وله منظر عجيب لصفائه وإنهماله على الرضراض (الحصى الدقيق)، فيجتمع مايخرج من تلك العناصر من المياه فيصير نهرا كبيرا يجري في بسيط من الأرض يكاد لا يتبين جري الماء فيه لاستواء أرضه، وحواليه نبت الكرفس والسعداء في مروج مخضرة لا تزال كذلك في جميع فصول السنة، إلى أن ينحدر إلى البلد فينقسم في داخلها على جداول كثيرة، فيشق أكثر جهاتها، ويتشعب في داخلها، فينتفع به في مساجدها وسقاياتها ودورها وأرجائها وحماماتها وسقي جنانها، ثم يخرج منها وقد حمل أثفالها وسائر فضلاتها... وليس لهذا النهر نظير لصفائه وعذوبة مائه وخفته وبرودة عيونه في زمن الصيف وسخانتها في زمن الشتاء، وهو يسخن سريعا، ويبرد سريعا، وهذه الصفات محمودة عند الأطباء..."[١] إلى جانب منافع أخرى، ومن محاسن موضع فاس أيضا "أن فيها من العيون عدد أيام السنة"،[٢] "والأبار والأنهار، فمياه العيون عذبة صافية باردة في الصيف حين يراد ذلك منها، ومياه الأنهار بعكسها سخنة في الصيف باردة في الشتاء، فلا يزال الماء الساخن والبارد موجودين في كل زمان، وذلك مما يعين عن التطهير والتنظيف ..."[٣] هذا مع وجود مواد طبيعية كالملح، والجبس والصلصال وأنواع الحجارة والرمال التي يسهل عملية البناء والتشييد[٤]، كما أن "حرها وبردها

(١) – الجزنائي، ص.٣٤-٣٥.

(٢) – إبن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، ص.١٤١.

(٣) – الجزنائي، ص. ٣٥.

(٤) – الجزنائي، ص.٣٥.

ليس بالشديد جدا، وقد يعتدل فيها الفصلان. الخريف والربيع في أوقاتهما، فيكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متباين بالتدريج، فلذلك كل فصل ينتقل من هواء إلى هواء ومن زمان إلى زمان بالتدريج، فلذلك قرب اعتدال الهواء في أرضها، وطاب الثرى وعذب الماء ..."،[١] ويؤكد هذا الوصف إبن أبي زرع بقوله : "وقد جمعت فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة..."،[٢] وهذا ما ساهم في ثقة السكان وانجذاب الناس إليها، كما أن اعتدال "طبوغرافية المكان حددت بعض وظائف المدينة ومسار تطورها".[٣]

حينما جاء المرابطون أسسوا مراكش في موقع "متوسط في بلاد المغرب كالقيروان في إفريقية".[٤] أما الموضع فقد توفرت المساحات المنبسطة وحجارة البناء بجبل جليز، والصخور الكلسية لإنتاج الجير، إضافة إلى رمال تانسيفت، كما كانت المنطقة خصبة جدا،[٥] وقد ساعدت بنية التضاريس على استغلال الفرشات المائية الباطنية حيث حفر المرابطون الخطارات[٦] وأقاموا السواقي لجلب المياه من واد

(١) – الجزنائي، ص.٣٥.

(٢) – **القرطاس**، ص.٣٣.

(٣) – بزاوي، **المدن و التجارة**، ص.٦٧.

(٤) – علي بن محمد بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج.VIII، ص.٧١.

(٥) – لكديم الصوصي مولاي إبراهيم، "مراكش بين التأسيس والتمدين في العصرين المرابطي والموحدي"، ضمن **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، أشغال الملتقى الأول، جامعة القاضي عياض، مطبعة فضالة، المحمدية، ط.١، ١٩٨٩، ص.٧١.

(٦) – الخطارات عبارة عن سواقي تحت أرضية تمكن من إيصال المياه الباطنية إلى وجه الأرض في مكان معين وتسمى في المشرق بالفجارات.

أغمات إلى مدينة مراكش،[١] ومكنت "هذه التقنية أهل المدينة من الاستفادة من ثلوج الأطلس ومن التساقطات على طول السنة، ومن تزويد السكان والمنشآت الحضرية الإسلامية الحمامات والمساجد بالماء الشروب".[٢]

٢- **الأساس الاقتصادي** : تميزت المدينة المغربية في العهد الروماني باعتمادها على ظهيرها والمناطق المجاورة لها وبالتالي انبنت أسس نشأتها أساسا على الاقتصاد الزراعي،[٣] فكان توسع الخريطة الزراعية للمدينة ينتج في داخلها تطورا في الأعمال الحرفية اليدوية وتنشيط الحركة التجارية فيها،[٤] ولعل هذا يصدق عليها أيضا منذ الفتح الإسلامي وإلى قيام المرابطين حيث بدأت تنتعش التجارة الصحراوية، فإذا كانت مدن الشمال قد استفادت أكثر من وجود النشاط الفلاحي والبحري، فإن مدن الجنوب نشأت وترعرعت نتيجة تجارة القوافل المتنامية، حيث شكلت المسالك التجارية الشرايين التي تغذيها بالحياة والاستمرار ...

فمدينة سجلماسة كانت تشرف على الطريق الصحراوية، وموضعها يسمح بممارسة الأنشطة الزراعية والرعوية، فقد كانت "لها بساتين، وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه (وللمدينة) مزارع كثيرة يسقونها من النهر ..."،[٥] كما وقعت سجلماسة في واحة خصبة بها منتوجات زراعية لها أهميتها كالنخل والأعناب

(١) - الصوصي مولاي إبراهيم، "مراكش بين التأسيس والتمدين"، ص.٧١.

(٢) - الصوصي مولاي إبراهيم، "مراكش بين التأسيس والتمدين"، ص.٧٢.

(٣) - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ج.II، ص.٣٢٨.

(٤) - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ج.II، ص.٣٢٨.

(٥) **الإستبصار**، ص.٢٠١.

والفواكه ...[١] وهكذا وصفت بكونها "مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل، فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا منه عن بدر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه، فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوا إلى سبع سنين ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة"،[٢] وربما ساهم هذا في أن يكون "أهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر"،[٣] وأن تكون "أبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية...".[٤] ويقول الإدريسي[٥] : "... وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر، وهي مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات، رائقة البقاع والجهات. ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر لها كثير الماء يأتي إليها من جهة المشرق من الصحراء يزيد في الصيف كزيادة النيل سواء، ويزرع بمائه حسبما يزرع فلاحو مصر، ولزراعته إصابة كثيرة معلومة ... ولأهل هذه المدينة غلات القطن وغلات الكمون والكرويا والحناء، ويتجهز منها إلى سائر بلاد المغرب وغيرها ...".

بل إنه يبدو واضحا من خلال الكتب الجغرافية والرحلات مدى أهمية العامل الاقتصادي في تطور المدن المغربية عموما، فإبن حوقل مثلا يذكر بأن تجار العراق والبصرة والكوفة وبغداد يقطنون بها ...[٦] ويشير الوزان[١] إلى أن "سجلماسة كانت

(١) - ينظر البكري، **المغرب**، ص.١٤٨ – ١٥١.

(٢) - إبن حوقل، ص.٩٠.

(٣) - إبن حوقل، ص. ٩٠.

(٤) - إبن حوقل، ص. ٩٠.

(٥) - **نزهة المشتاق**، ج.I، ص. ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٦) - **صورة الأرض**، ص. ٦٥.

مدينة متحضرة جدا ودورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان". كما يتبين من خلال البكري[٢] دور السوق في تشكيل النواة الأولى لمدينة نكور والتي احتضنت "أسواقا عامرة ومفيدة" تعبر عن مدى ارتباط نشأتها العمرانية بالتجارة والحرف، وهذا ما يبدو واضحا من خلال إقدام الأمير سعيد بن إدريس بمجرد انتهائه من بناء قاعدته على نقل أصحاب السوق والحرفيين إليها،[٣] بل إن موقع نكور المتميز وعلاقتها الخاصة مع الأندلس جعلاها تسيطر على كثير من المراسي الموجودة في السواحل المتوسطية من المغرب، وبالطبع سيساعد ذلك على ازدهارها وتطور عمرانها.

من خلال قراءة مصدرية يتضح أن مدينة فاس توفرت على خصائص مهمة ساعدتها على التطور منذ الوهلة الأولى، إذ كانت "ملتقى التيارات الاقتصادية لمنطقة غنية"[٤] تميزت "بالمحرث العظيم ... سقيا وبعلا"، وتوفر "جميع الفواكه وأصنافها وأنواع الخضر والبقالة ..."، إضافة إلى الحطب الذي يأتيها من جميع جهاتها، وخشب الأرز الذي تجلبه من جبال بني يازغة ...[٥] وهكذا فإن اختيار فاس موضعا وموقعا لم يكن عفويا، وإنما ناتج عن وعي وفهم لأهمية مجالاتها ومؤهلاتها

(١) - **وصف إفريقيا**، ص. ١٢٧.

(٢) - **المغرب**، ص. ٩٢.

(٣) - البكري، ص.٩٢ / أحمد الطاهري، **إمارة بني صالح في نكور**، النجاح الجديدة، ط.١، ١٩٩٨، ص.١٣١-١٣٢.

(٤) - روجي لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي،بيروت،١٩٩٥، ص. ٧٨.

(٥) - الجزنائي، ص.٣٤ - ٣٧.

الاقتصادية المرتبطة بسهل سايس والمناطق المجاورة عموما، هذه المؤهلات التي ستصبح بمثابة المحرك النشيط للحرف والتجارة، ومن ثم لنشأة وتوسع العمران.

لم يقتصر دور العامل الاقتصادي على تأسيس فاس وحدها، بل شمل جل - إن لم نقل كل- المدن الإدريسية، فالبصرة مثلا بنيت في موضع عرف بكثرة مراعيه وزرعه وضرعه، كما عرفت هي ببصرة الكتان، حتى أن سكانها "كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارتهم بالكتان".[١] ومنحها موقعها أهمية كبرى حتى اعتبرت ثاني مدينة إدريسية بعد فاس، حيث ارتبطت بطرق متعددة تؤدي إلى طنجة وأصيلا وفاس وقصر كتامة وماسة ...[٢]

كان البعد الاقتصادي حاضرا في تأسيس مراكش، فموضعها يقع على طريق تجارية قديمة،[٣] ثم إنه امتداد لمجال أغمات ومايرتبط به من أهمية تجارية، كما وجد فيه المرابطون ضالتهم في ممارسة الرعي، يقول صاحب "الحلل" : "فانتقلوا إلى تلك الرحبة والحنضل فوجدوا في فحصها من المرج الخصيب للجمال والدواب ما غبطهم بها ..."،[٤] ولم ينعدم الوعي بأهمية العلاقة الاقتصادية لمراكش بمحيطها، فهي ستجعل من "نفيس جنانها ومن دكالة فدانها".[٥]

---

(١)- البكري، ص.١١٠ / الحميري، ص.١٠٨.

(٢)- البكري، ص.١١٠/ الحميري، ص.١٠٨/ محمد رضا، "البصرة"، ص.١٧/ Daniel Eustache, EL-Basra, p.٢٢٨/٢٣٤.

(٣)- الصوصي، "مراكش بين التأسيس والتمدين"، ص.٧٢.

(٤)- الحلل الموشية، ص.١٥.

(٥)- الحلل الموشية، ص.١٦.

إذن يتبين أن العامل الاقتصادي كان حاضرا في اختيار مواقع ومواضع المدن المغربية خلال الفترة المدروسة، وساهم بشكل من الأشكال في بروزها وازدهارها، بل واستمرارها في أداء وظائفها المتعددة وأدوارها المختلفة.

٣- **الأساس الأمني** : يعتبر الأمن مسألة مركزية ليس في تاريخ المغرب وحسب، بل في تاريخ الإنسانية جمعاء، إذ إن اختلاله لا يتبعه إلا الفوضى والخراب، لهذا كان الشرط الأمني من أوكد الشروط التي يتم التركيز عليها في بناء المدن واختيار موضعها، خاصة بالنسبة للمدن السلطانية، ويتجلى الأساس الأمني في تحصين المدينة وتسويرها واختيار المواضع الوعرة، أو التي يحدها تحصين طبيعي كالنهر أو البحر أو الجبل ... ووجود قبائل موالية تحمي المدينة أثناء الهجمات المعادية، ثم وجود "السلطان إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها".[١]

من منطلق الهاجس الأمني نجد أن سجلماسة بنيت في "موسطة الصحراء" بعيدا عن بطش ممثلي الخلافة بالمشرق، ولعل الخوف من الغارات هو الذي جعل موضع نكور يبتعد عن البحر بحوالي خمسة أميال،[٢] ويبدو هذا الهاجس والخوف واضحا في اختيار مواقع المدن الإدريسية، وبالخصوص إثر التدخل الفاطمي والأموي في المغرب وعجز الأدارسة عن المواجهة، فحجر النسر مثلا شيدت كحصن وملجأ لهم وللحفاظ على ما تبقى من ممتلكاتهم، ولهذا كان موقعها في جبل شاهق، والطريق المؤدية إليه وحيدة ووعرة.[٣] وأسست وجدة أيضا على سهل تكتنفه من الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال هي رأس عصفور وجبل المحصر

(١) - القرطاس، ص.٤٠.

(٢) - البكري، ص.٩١.

(٣) - إبن حوقل، ص.٨١ / Patrice Cressier, Hagâr al-Nasr, p. ٣٠٥, ٣٠٩

وجبل الزكارة، بمعنى أنه موضع محصن يساعد على صد الهجومات المرتقبة،[١] والأمر نفسه بالنسبة "لمدينة تسول المعروفة بعين إسحاق قاعدة موسى بن أبي العافية، و(التي) كانت على ثلاثة أجبل ...".[٢]

ولا ننسى أن مراكش بدورها تحكم في اختيارها الموقع الأمني المتمثل في الرغبة في مراقبة قبائل المصامدة، فهي "على هذا الأساس لم تكن في بدايتها سوى معسكرا لتجمع القوات اللمتونية لرد كل اجتياح ممكن قد تشنه هذه القبائل على الوجود والممتلكات المرابطية"،[٣] ولهذا فإن بناء مراكش في قدم جبال الأطلس المتوسط كان يعني أن "زمام جبل درن بيد أميرها"،[٤] رغم كثرة من يعمره، إذ "لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعا".[٥]

من بين الإعتبارات الأمنية في اختيار الموقع، نجد القرب من القبائل الموالية، والتي تمد المدينة بالموارد البشرية اللازمة للدفاع عن نفسها من الأخطار التي تهددها، ولأن نشأة المدينة في موقع بين قبائل مناوئة مغامرة يحفها الخسران، لهذا فرغم خضوع مدينة نكور لنفوذ دولة عربية، فإن هذه الأخيرة استمالت القبائل البربرية الموجودة بالمناطق المجاورة، وارتكزت سجلماسة على عصبية قبائل مكناسة المستقرة على ضفاف نهر زيز، كما شجع إدريس الثاني بعض القبائل العربية على

---

(١) - خديجة هرام، **التطور التاريخي لمدينة وجدة**، ص.٤٣.

(٢) - البكري، ص.١٤٣.

(٣) - الحسين بولقطيب، "النشاط الإقتصادي لبعض حواضر المغرب الإسلامي أواخر ق.٥ وبداية ق.٦هـ"، ضمن **المدينة في تاريخ المغرب العربي**، ص.١٨٠.

(٤)- **الحلل الموشية**، ص.١٦.

(٥)- **العبر**، ج.VI، ص.٢٤٥.

الهجرة إلى فاس وجعل منها بطانته وأقرباءه، ثم إن موقع فاس بالقرب من مضارب القبائل المناوئة، فرض على زيري بن عطية بناء مدينة وجدة، واختار موقعها وسط مضارب قبائل زناتة حيث موطنه الأصلي وعصبة قومه وعشيرته.[١]

من خلال ما سبق، يتضح أن المدينة في علاقتها بالموضع والموقع ارتكزت على ثلاثة أسس: طبيعية واقتصادية وأمنية، والتي تباين مستوى الإعتماد عليها حسب خصوصية ظروف المرحلة التاريخية، وحسب طبيعة المدينة في حد ذاتها وطبيعة وظائفها وأدوارها. والملاحظ أن العديد من المدن المغربية بعد الفتح الإسلامي ظهرت على أنقاض مدن قديمة، وكأنها طرحت نفسها بديلا عنها في إطار دورة العمران مقابل دورة الخراب، ولهذا كانت مواقعها قريبة منها.

(١)- **العبر**، ج.VII، ص.٤٣/ **القرطاس**، ص.١٣١/ إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، ط.٢، ١٩٨٤، ج.I، ص.١٤١/ عبدالله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط. III، ١٩٦٠، ص.٤٩٥.

ثالثا : معالم في التدبير العمراني

*****

لا تخضع كل المدن لتصميم وتخطيط منذ البداية، فكثير منها يكون عبارة عن قرية أو أي شكل عمراني آخر، لكن بفعل تزايد الثروة الفلاحية أو وجود الموقع على الطرق التجارية ... تتطور تلقائيا عبر مراحل انتقالية لتصبح "مدينة"، وهذا النوع بالرغم من أنه كثير العدد إلا أنه قليل الشأن مقارنة بالمدن الأخرى التي تؤسس منذ البداية من طرف أمير أو حاكم بهدف القيام بوظائف متعددة، لعل أبرزها تدبير الشؤون السياسية، حيث يتم اختيار موقعها وموضعها بدقة، وإنشاء مرافقها ومؤسساتها وتحصيناتها وفق رؤية تصورية معينة للمجال.

طبيعي أن أي سلطة صاعدة - ابتداء من سلطة الفتح الإسلامي- ترث بعض المدن، وتحاول ترميمها أوتعديلها وتحسينها، حيث إن المسلمين عند إخضاعهم لمدينة ما "يقومون بتكييفها حسب عقليتهم، ويضيفون إليها عناصر جديدة من ثراتهم"،[1] أو إن السلطة الجديدة تقوم بتشييد مدن جديدة لتجسيد كيانها وتسيير شؤونها، ونقصد بالتدبير العمراني تلك الرؤية الإستراتيجية للتعامل مع المدن الموجودة أوالمنشأة، ومن ضمن مهام التدبير القيام بالتخطيط أثناء تأسيس المدن، سواء من حيث اختيار الموقع والموضع كما تطرقنا إلى ذلك سابقا، أومن توظيف بعض المبادئ الدينية والحضارية كأحكام في البنيان، أومن حيث توزيع المرافق. ويهدف التخطيط العمراني إلى "جلب المصالح ودرء المفاسد"، إذ وجود المدينة ضروري للقيام بعدد

---

(١) - مراد جلول، "تخطيط المدينة العربية الإسلامية من خلال المدينة العتيقة ببنزرت عبر التاريخ"، ضمن **أعمال الندوة السنوية التاريخية لمدينة بنزرت**، دورتا سنة ١٩٩١و ١٩٩٢، نشر جمعية صيانة المدينة، بنزرت، ص.١٤.

من الشعائر الدينية (مصالح تعبدية)، إضافة إلى المصالح المعاشية، ذلك أن الإجتماع الإنساني ضروري من ناحية التعاون والتآزر وخدمة البعض للبعض.

في إطار الحديث عن التخطيط "لا يظهر أن مدن المغرب الأقصى الإسلامية قد استلهمت تصاميم المدن السابقة للعهد الإسلامي بالرغم من إستقرار بعضها على أنقاضها أوبجوارها، كما هو الشأن بالنسبة لطنجة والعرائش وأصيلا والقصر الكبير وسلا وتطوان وسبتة. وهذه المدن بالصفة التي نعرفها بها، هي مدن مغربية إسلامية، استفادت ربما من أدوات البناء التي وجدت بالميدان، لكن غير هذا فهي مدن استحدثت خلال مختلف مراحل العصر الوسيط بالمغرب. وباستثناء المدن التي شيدت خلال نهاية العصر الوسيط فإن تنظيم المجال الحضري يبدو كحصيلة لتقاطعات مرفلوجية لمشاريع عمرانية سابقة، ترجع كما هو الحال بفاس، إلى القرن الثاني الهجري أي أن مختلف العصبيات التي تعاقبت على حكم المغرب قد ساهمت في بلورة هذه المدن وتعميرها من ناحية التصميم والإمتداد المجالي، ومن ناحية المرافق التي أضافتها إليها ...".[١]

هكذا عمل الفاتحون المسلمون على "أسلمة" الموجود من المدن وإنعاش حياة التعمير بها، إذ قام موسى بن نصير بتحويل مدينة طنجة إلى مدينة إسلامية ببناء مسجد فيها، ونقل إليها أعدادا من السكان الأمازيغ،[٢] وحول المسلمون كنيسة

---

(١) – محمد فتحة، "تنظيم المجال الحضري داخل المدينة المغربية في نهاية العصر الوسيط"، ضمن **وقفات في تاريخ المغرب**، تنسيق عبد المجيد القدوري، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٧، منشورات كلية الآداب– الرباط، ٢٠٠١، ص.٦٤.

(٢) – عبد العزيز فيلالي، **المظاهر الكبرى في عصر الولاة..**،ص.١٨٨.

بمدينة سبتة إلى مسجد جامع، وذلك سنة ٨٥هـ.[١] كما اهتموا بالمناطق الجنوبية من المغرب، إذ شيد عقبة بن نافع[٢] مسجدا بإيجلي وآخر بدرعة، وهو ما يعني إنشاء أهم معلمة يتجمع حولها الناس في المدينة الإسلامية، ومدوا قنوات المياه إلى السوس وخاصة مدينة إيجلي،[٣] وقاموا بحفر الآبار على طول الطريق المؤدية إلى السودان الغربي،[٤] وحسب البكري فإن عبد الرحمن بن مروان قام بتعمير المنطقة الممتدة من وادي السوس إلى وادي ماسة مسيرة يومين.[٥] وربما كان للخوارج الذين استقروا بأقصى الجنوب دور في إنعاش ظاهرة التعمير، وذلك بالإعتماد على وساطة التجارة الصحراوية.[٦]

كانت من أولى أعمال إدريس الثاني إعادة ترميم مدينة وليلي، وخاصة سورها المنحوت من الحجر الكبير، والذي تخترقه الأبواب العالية العريضة، فأصبحت في زمن قليل مدينة متحضرة يقصدها الناس من مختلف الآفاق.[٧] ويذكر أن يحيى بن محمد بن إدريس كثرت في عهده العمارة بمدينة فاس، حيث اهتم بتزويد عاصمته

(١) - الأنصاري، **اختصار الأخبار**، ص.١٠.

(٢) - إبن عذاري، ج.I، ص.٢٧.

(٣) - البكري، **المسالك**، ج. II، ص.٨٥٣.

(٤) - ينسب البكري ذلك إلى عبدالرحمن بن حبيب (**المسالك**، ج.II، ص.٨٥٣).

(٥) - البكري، ج.II، ص.٨٥٣.

(٦) - M. Abitabol, juifs maghrébins et commerce transaharien, p.١٧٨-١٧٩.

(٧) - الوزان، ج.I ،ص. ٢٢٨/ مصطفى أبوضيف، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية : منذ الفتح العربي إلى سقوط الدولة المستقلة (٢٣-٢٩٦هـ / ٦٤٣ - ٩٠٩ م)**، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء، ط.١، ١٩٨٦، ج.I، ص.١٤١.

بالمباني ذات المنافع العامة، فبنى بها الحمامات والفنادق التي أقيمت لخدمة الوافدين على المدينة من التجار وغيرهم،[١] وبلغت مبلغا مهما من حيث البناء والتعمير.[٢]

مع صعود المرابطين إلى الحكم اتخذ التعمير طابعا عسكريا، إضافة إلى أنهم لم تكن لهم استراتيجية للتمدين في شمال المغرب، بل صبوا اهتمامهم أكثر على منطقة الجنوب،[٣] لذلك لم تستفد مدن الشمال عموما من مجهوداتهم العمرانية، باستثناء قاعدة فاس التي حينما فتحها المرابطون أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد به مسجدا، عاقب قاطنيه وحملهم على بناء المسجد، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء وإصلاح الأسواق وتهذيب البناء ...[٤] وبنى بها قصبة للجيش.[٥] ومع احتفاظهم بوظائف المدينة المغربية السابقة، قام المرابطون بتشييد المعسكرات والقلاع والحصون، واتخذوها مرتكزا لقواتهم العسكرية، مثل تاودا التي تحولت إلى مدينة كبيرة وآمرجو وتاسغيموت وتاكرارت تلمسان وتاكرارت مكناس وتابلبلا ...

عموما فقد أضافت السلطات الإسلامية إلى المدينة المغربية القديمة عناصر معمارية جديدة، وأدخلت عليها تعديلات لتلائم رؤيتها ما كانت تصبو إليه، ولعل هذا ما أعطاها نفسا جديدا، وأدخلها مرة أخرى في دورة الحياة والحركة، لكن عمل

---

(١) - **القرطاس**، ص ٦٧-٦٨ / العبر، ج.IV، ص.١٥.

(٢) - طه جمال أحمد، **فاس في عصر المرابطين والموحدين**، ص.٥٦.

(٣) - محمد المغراوي، "قصر كتامة"، ص.٥٦.

(٤) - المرادي، **الإشارة في تدبير الإمارة**، ص.٢٥ / **القرطاس**، ص.١٧٩.

(٥) - لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ج.I، ص.٧٤.

هذه السلطات لم يقتصر على إحياء المدن السابقة، بل أيضا بناء مدن من شأنها أن تخدم مشروعها وتسهل تدبيرها السياسي.

يعتبر العديد من الجغرافيين والباحثين وغيرهم أن المدينة العتيقة لا يوجد بها تخطيط منظم، إذ أن الإنطباع الذي يخرج به المتجول في دروبها وأزقتها الضيقة الملتوية وغير المرتبطة ظاهريا هو انطباع سلبي ... لكن بدراسة متعمقة جادة للوظائف العمرانية لهذه المدينة يمكن لهذه الأفكار أن تتلاشى أو أن تضمر.[١]

يبدو لنا من هندسة المدن الإسلامية وبناء مكوناتها ومرافقها المعمارية المدنية والعسكرية أن التخطيط والتنظيم كان حاضرا بوجه من الأوجه، فهناك تصور حضري عام موحد طبع المدن الإسلامية عموما، ومنها المدن المغربية الوسيطية، "فعلى الرغم من أن أصول هذه المدن وماضيها يختلفان، وأن هناك بعض الإستثناءات التي يتحكم فيها التاريخ والطوبوغرافيا ... إلا أنها في النهاية تقدم وجها واحدا، يتجلى في تصميم شعاعي دائري **Radioconcentrique** يتوفر دائما على مركز جذب ...".[٢]

اكتسح المد الإسلامي مناطق متعددة، وانتشر الإسلام في بيئات جغرافية مختلفة، فأغنى نماذج العمران بمبادئه وتصوراته العظيمة، ولهذا "علينا أن نتوقع وجود تباين من حيث البنية والتحصين بين مدينة وأخرى من جهة، وفي جهات مختلفة في المدينة نفسها من جهة أخرى، الأمر الذي يجعل من الصعب تقديم صورة صحيحة ودقيقة

(١) - مراد جلول، "بنزرت"، ص.١٥.

(٢) - محمد فتحة، "تنظيم المجال الحضري"، ص.٧١.

لتركيب المدينة الإسلامية، لكن على الرغم من هذه التحفظات فإنا نستطيع أن نميز ملامح عامة نتوقع وجودها في أكثر المدن الإسلامية ..".[١]

هكذا فالمدن المغربية الوسيطية جمعت بين الأصالة والإقتباس، بين المحلي والمؤثرات الخارجية، بين مبادئ عامة ثابتة ومتغيرات تحكم فيها عنصر الزمن والحدث التاريخي ... نجد سجلماسة مثلا قد تأثرت بالنمط الصحراوي الإفريقي الذي نوعه مجيء الإسلام، وفاس تذكر بالشرق العربي والشرق الأقصى وتمزج المؤثرات المتوسطية الإغريقية الرومانية بالمؤثرات العربية الإسلامية، وأما مراكش فيختلط فيها التأثير الصحراوي الإفريقي والتأثير المتوسطي الشرقي...[٢] كما تأثرت أبراج المدن الإدريسية- الشأن في ذلك أبراج البصرة- بالحصون الأموية والعباسية نصف الدائرية الشكل، والتي انتقلت من المشرق ومصر إلى إفريقية ومنها إلى المغرب.[٣] وإذا كان الفن المعماري قد تميز بتأثره بالفن البزنطي قبل المرابطين، فإنه في عصرهم سيأخذ طريقه إلى الإغتراف أكثر من الفن الأندلسي حتى سماه أحد الباحثين[٤] "عصر الفن الأندلسي المغربي"!

أما الخصوصية المحلية فتمثلت في تنوع مواد لبناء بتنوع ما وفرته المعطيات البيئية من مواد، وباختلاف طبائع السكان، بالإضافة إلى عوامل الطوبوغرافيا والمناخ والتاريخ ... و"تختلف أحوال البناء في المدن، كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه، ويناسب مزاج أهوائهم واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر

---

(١) - مصطفى عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية**، ص.٢٢٣.

(٢) - لكديم الصوصي، "مراكش بن التأسيس والتمدين"، ص.٧٣.

(٣) - Henri Terrasse, L'art hispano-mauresque : des origines au XXV, Paris,١٩٣٢, p.١٢٣.

(٤) - إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج.I، ص.٢٢١.

..."."[١] وبهذا وجدنا الخشب المستعمل في بناء نكور الأرز والعرعر،[٢] وبنيت أساسات سجلماسة من حجر تعلوه الطابية أو اللبن،[٣] وتنوعت مواد بناء مدينة فاس من كلس وصلصال وجبص ورمال وحجارة مترسبة بين سفوح الجبال المجاورة والجير والخشب،[٤] إضافة إلى الطين والحجر الكدان.[٥]

إذن ففن العمارة بالمغرب نهل من ثلاث روافد رئيسة، وهي الرافد الأصيل أو المحلي البربري، والرافد الإسلامي المشرقي ثم الرافد الأندلسي خاصة في العصر المرابطي.

إذا كنا قد أشرنا إلى أن التعامل مع المدن الموجودة من قبل مختلف السلطات الإسلامية خضع لفلسفة حضارية خاصة، فإن إنشاء مدن جديدة بدوره تم بناؤه على مبادئ وقواعد استمدت أهميتها من الدين والعرف، وفي إطار تحقيق مجموعة مصالح وحاجات، وتجاوز بعض الأضرار المادية والمعنوية، وهو ما انعكس على طبيعة التوزيع المجالي للمكونات والمرافق المعمارية داخل أية مدينة.

إن إنشاء المرافق المختلفة بالمدن المغربية لم يكن وليد الصدفة، وإنما أملته ظروف واعتبارات معينة تحكم نوعية المنشآت التي تحتل حيزا مجاليا ما في مركز المدينة أو في أطرافها. فالمساجد مثلا تتوزع عبر تراتبية تامة، إذ أن المسجد الجامع غالبا ما يكون

---

(١) - إبن خلدون، **المقدمة**، ص. ٣٧٧.

(٢) - البكري، **المغرب**، ص.٩٠

(٣) - البكري، ص١٤٨.

٣٥٥ - **القرطاس**، ص.٢٥، ٣٧، ٤٤ / الجزنائي، ص.٢٥ / J. Célérier, les conditions géographique du développement de Fes, p.٤, ٥, ٩

(٥)- البكري، ص.١١٠.

في مركز المدينة ووسطها،كما هو الشأن بالنسبة للقرويين بفاس أو مسجد إبن يوسف بمراكش ... ثم مساجد الأحياء التي تتوزع في كل نقط المدينة تقريبا، فمساجد البيوت التي كانت مخصصة للصلاة وتعليم الإناث. و الأمر نفسه بالنسبة لمركز الحكم حيث مقر الأمير أو الوالي غالبا ما يتمركز في وسط المدينة (نموذج دار القيطون بفاس)، وقد يكون بعيدا نسبيا عن مركزها (نموذج قصر الحجر بمراكش). والأسواق بدورها خضعت للتراتبية المجالية نفسها، حيث نجد القيسارية في الوسط، وهي عادة ما تتخصص في بيع المنتجات الصناعية وسلع الترف المتنوعة،[1] ثم أسواق الحاجات الموسمية، فأسواق الحاجات اليومية، وأسواق السلع الملوثة، وأخيرا السوق الأسبوعي الذي يوجد خارج الأسوار، وهذا ما يبدو واضحا في مدينة فاس.

(١) - الوزان، ج.I، ص. ١٩٠/ أحمد مختار العبادي، "من مظاهر الحياة الإقتصادية في المدينة الإسلامية"، **عالم الفكر**، المجلد ١١، ع.١، ١٩٨٠، ص.١٥٧.

obeikandl.com

رسم تقريبي يوضح التوزيع المجالي التراتبي لأسواق مدينة فاس

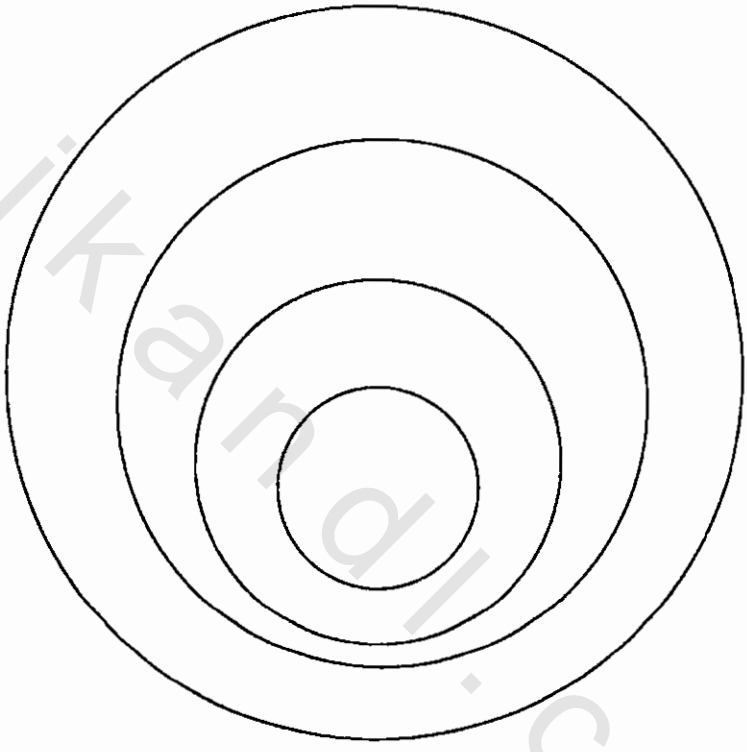

مركز المدينة

١

٢

٣

٤ ٥

obeikandl.com

١- القيسارية بالمركز

٢- أسواق الحاجات الموسمية

٣- أسواق الحاجات اليومية.

٤- أسواق السلع "الملوثة" في أطراف المدينة قرب الأبواب.

٥- السوق الأسبوعي خارج أسوار المدينة.

obeikandl.com

من القواعد التي حكمت توزيع المرافق نجد مبدأ التنطيق (Le zonage)، والذي يهدف إلى دفع الضرر، ولهذا عرفت العديد من المدن المغربية والإسلامية عموما تطبيق هذا المبدأ، وذلك بجعل كل قطاع وظيفي (سكني، تجاري، حرفي ...) في نطاق جغرافي محدد، وتوطينه وفق رؤية تأخذ بعين الإعتبار تحقيق التكامل والإنسجام، وخدمة السكان وضمان راحتهم وطمأنينتهم، ودفع الضرر عنهم سواء كان الضرر ماديا كالدخان أو الرائحة الكريهة، أو معنويا كالصوت المزعج أو كشف الحرمات.[١] لهذا فلا وجود لمحلات تجارية مواجهة لمنزل يعرض أهله لعيون المتعاملين مع هذه المحلات والعاملين فيها، فقد تركزت الأسواق على طول الشوارع الرئيسة المتسعة دون الأزقة الضيقة،[٢] وبالإضافة إلى هذه الحوانيت هناك التربيعات،[٣] وكل هذه التصاميم المعمارية تحقق مبدأ الخصوصية والحرمة للسكان بالمناطق المجاورة للأسواق، ولا يوجد داخل المدينة المغربية نطاق خاص بالسكن فقط، بل قد يتجاور مجال السكن مع أصناف الحرف، لكن تأثير هذا الجوار يكون ضعيفا بفعل وجود أزقة غير نافذة في الغالب، تسمح بالإبتعاد عن الضجيج.[٤]

أما المرافق الاقتصادية فقد تحكم في توزيعها الجغرافي داخل المدينة الحاجة الماسة لبعض السلع، وطبيعة بعض الحرف، واعتبار التجانس والتخصص وغير ذلك :

---

(١) – وهو الوضع الذي يتيح الإطلاع على الدور مما اعتبر بدوره من الضرر المعنوي اللازم اجتنابه.

(٢) – خالد محمد عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، سلسلة كتاب الأمة، ع.٥٨، ١٩٩٧، ص.١٠٤.

(٣) – التربيعات عبارة عن ساحة رباعية في الغالب تتوسط حوانيت تحيط بها من كل جانب، ولها منفذ أو أكثر على الشارع.

(٤) – محمد فتحة، "تنظيم المجال الحضري"، ص.٦٨.

• **الحاجة الماسة لبعض السلع** : بناء على حاجة السكان اليومية والضرورية لأنواع معينة من السلع يقتضي قربها من الجميع، حيث يتطلب وجود أسواق معينة في جميع قطاعات المدينة دون استثناء، مع تركز لها في قلب المدينة،[١] وهذا ما يفسر تركز حوانيت بعض السلع في وسط المدينة قرب جامع القرويين وعلى طول الطالعة الكبرى بمدينة فاس مثلا، كما أن أهم المرافق الاقتصادية لمراكش اختطت في مركز المدينة حول جامع إبن يوسف.

• **طبيعة بعض الحرف** : كانت الحرف تنتظم في توزيعها حسب تراتبية مجالية تعكس أهميتها انطلاقا من وسط المدينة، ونظرا لخصوصية بعض الحرف فإن توطينها يكون على هامش المدينة من أفران الجير وصناعة الفخار وغيرها "من المواد الثقيلة الوزن الكبيرة الحجم، والتي يؤثر نقلها إلى داخل المدينة على حركة المرور فيها، ويعيق الحركة في شوارعها العامة"،[٢] كما أن الصناعات الموجهة للإستهلاك البدوي، وحتى في فترات لاحقة عن الفترة المدروسة، كانت غالبا ما توجد بالقرب من أبواب المدينة كصانعي الشكائم وفرابيش سروج الخيل وجلودها ومزخرفي الركاب والمهاميز واللجم[٣] ... ففي مراكش وجدنا الترتيب "يجعل قرب مسجد إبن يوسف المهن النبيلة والنظيفة (كتبيين وتجارالأثواب) ثم المهن القليلة التلوث، فالأكثر تلوثا بمهن النار في أقصى الجنوب وأقصى الشمال (حدادين وقشاشين)، وبالمهن الكيماوية والنارية في أقصى الغرب وأقصى الشرق (دباغين وفخارين)".[٤]

---

(١) – خالد عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، ص.٩٨.

(٢) – عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، ص.٩٩.

(٣) – الوزان، ج.I، ص. ٢٣٩ – ٢٤٠.

(٤) – الصوصي، **مراكش بين التأسيس والتمدين**، ص.٧٣.

• **التجانس والتخصص** : نشير إلى أن بعض التجارات لايمكن أن تتجاور في الموضع نفسه، لحصول الضرر أو لعدم التوافق، فمثلا نجد سوق العطارين لا يجاور الحدادين. وبالمقابل نجد السلع المتشابهة أو المتقاربة أو المتكاملة جنبا إلى جنب، وهذا ما ساد جميع مدن العالم الإسلامي تقريبا، وتكررت نفس التسميات داخلها، وكان الباعث على التوزيع التخصصي حس تنظيمي ودوافع تنافسية وتكاملية في الوقت نفسه. وإذا ما وقع اختلال أو تراجع عن المبادئ المشار إليها تتدخل رقابة الأجهزة المشرفة على المدينة قصد معالجة أو تدارك الخلل.

بعد إشارتنا لبعض المبادئ والقواعد التي طبعت تدبير وتخطيط المجال الحضري، والتي حاولت خلق توازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، نستعرض فيما يلي **بعض أهم المكونات والمرافق العمرانية داخل المدينة المغربية :**

– **المسجد الجامع** : تقليدا لنهج الرسول **صلى الله عليه وسلم**، اعتبر المسجد أول معالم ومرافق المدينة الإسلامية عموما، وغالبا ما كان يشكل نواتها ومركزها، ويتوسطها بتوأمة مع دار الحكم، "وهذا التشكيل المعماري الذي يضم المؤسسات العمومية ومؤسسات الدولة هو في الواقع تقليد قديم".[١] وهو ما يظهر جليا في مدينة فاس حيث يتوسطها جامع القرويين ومن قبله جامع الشرفاء، عكس مدينة نكور التي وجد مسجدها الجامع خارج أسوارها،[٢] ولعل ذلك يعد استثناء داخل المدينة المغربية. أما مراكش فلا غرابة أن يكون بناؤها الأول قد انطلق من المسجد، باعتبار أن فكرة إقامة دولة المرابطين استندت على أسس دينية.[٣]

---

(١) – عبد الغني أبو العزم، **معالم المدينة الإسلامي : نموذج مراكش**، ضمن "ندوة مراكش"، ص.٦٠.

(٢) – البكري، **المغرب**، ص.٦١.

(٣) – أبو العزم، "معالم المدينة الإسلامية"، ص.٦٠.

- **مقر الحكم** : حيث مستقر السلطة سواء كنت مركزية أو محلية، وقد شكل منطلق القرارات السياسية، وهكذا نجد أن اليسع بن أبي القاسم أتم بناء سجلماسة وتشييدها "واختط بها المصانع والقصور"،[١] كما أن إدريس الثاني لما أسس "العالية" بنى ماعرف بـ"دار القيطون"[٢] قرب جامع الشرفاء في مركز المدينة. وهذا يوسف بن تاشفين لما أمر بتشييد مدينة مراكش، اشتغل ببناء دار الإمارة أو "قصر الحجر" وحصنه لحفظ أمواله وسلاحه.[٣]

- **المرافق الاقتصادية** : تتمثل في المجال الذي تنصرف إليه الأنشطة التجارية والصناعية، كالأسواق بأنواعها (القساريات، الحوانيت، السوق الفضاء ...) أو الفنادق والمصانع والمحترفات... وتتعدد أشكال السوق داخل المدينة المغربية والإسلامية، وتتباين حسب الزمان والمكان، فقد شهدت تطورا تاريخيا مرت فيه بعدة مراحل محتفظة بخصائصها الذاتية:"... مراحل التكوين المعماري للأسواق في المدن الإسلامية وأنماطها المتنوعة، وأشكالها المعمارية المرتبطة بظروف نشأتها ووظائفها، بغيرها من التكوينات المعمارية في المدينة في إطار المبادئ الإسلامية التي تحقق النفع وتمنع الضرر. وهو ما يبرز التأثير الإسلامي على هذه النوعية من المنشآت التي تشكلت معماريا وفق حاجات المجتمع الإسلامي، وأخذت ما يلائمها من عناصر معمارية سبق وجودها في العمارة البزنصية والرومانية، واختلفت رؤيتها

---

(١) - **العبر**، ج.VI، ص.١٧٢.

(٢) - الجزنائي، ص.١٩.

(٣) - **الحلل الموشية**، ص.٢٥ / وسماه الإدريسي "**دار الحجر**" (**النزهة**، ص.٢٣٣).

التخطيطية وتشكيلها المعماري عن الأسواق في المدن اليونانية القديمة وغيرها ...".[١] وفيما يلي **أهم المظاهر المعمارية للمؤسسات التجارية** :

أ- السوق الفضاء : وهي الأسبق في الوجود التاريخي،[٢] لأنها لا تتطلب أي بناء، وانتشرت بالمدن المغربية بشكل كبير، نذكر أنموذجا "سوق الخميس" بفاس، التي استمرت في رواجها إلى حدود أوائل القرن ٢٠م. ونظن أن المكان المحدد لإقامة هذا النوع من الأسواق غالبا ما يكون خارج الأسوار، وذلك لحجم البضائع ولإبعاد الضرر ...

ضمن السوق الفضاء يمكن أن نذكر ما أسمته المصادر التاريخية "بالرحبة"، والتي كانت فضاء لتجارة من نوع خاص، توجد داخل المدن وتعتمد في أوزانها على المكاييل، من ذلك رحبة الزرع ورحبة الأعواد ثم سوق العبيد ...[٣]

ب- القيسارية : وهو نمط من البناء تبلور منذ العصر الأموي،[٤] والقسارية عادة مكان لبيع المنتجات الصناعية وسلع الترف المتنوعة، وقد انتشر هذا النوع من المنشآت في مدن المغرب والأندلس وشمال إفريقيا على وجه الخصوص.[٥] ومن ضمنها مدينة فاس التي أسست بمركزها قيسارية منذ عهد إدريس الثاني.[٦]

---

(١) - عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص.٢٦٧.

(٢) - Lewis Mumford, *la cité à travers l'histoire*, p. ١٩٦.

(٣) - عبد الوهاب الدبيش، "توزيع المرافق الإقتصادية بفاس المرينية"، ضمن **أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، كلية الآداب – عين الشق، البيضاء، ١٩٨٨، ج.II، ص.٤٣.

(٤) - عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص.٢٥٦- ٢٥٧.

(٥) - عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص.٢٦٢.

(٦) - الوزان، ج.I، ص.١٩٠.

obeikandl.com

ج- **التربيعات** : ظهرت في وقت لاحق عن ظهور السوق الفضاء والقيسارية، وهي عبارة عن ساحة رباعية في الغالب، تتوسط حوانيت تحيط بها من كل جانب، ولها منفذ أوأكثر على الشارع، وقد وجدت في العديد من المدن المغربية كسبتة التي توفرت على إحدى وثلاثين تربيعة زمن الأنصاري.[١] وكانت بفاس تختص بوظائف كثيرة ... والتي مازالت موجودة بها إلى اليوم.

د- **الحوانيت المتراصة على طول الشوارع** : هذا النوع ارتبط وجوده بالشوارع النافذة، وصنفت حوانيته تصنيفا تجاريا يمنع وقوع الضرر، ويمكن من مراقبة الأسواق ويسهل على المشتري الوصول إلى حاجته، ويدفع إلى التنافس،[٢] وهذه الحوانيت تتجمع في إطار سوق متخصصة في سلعة واحدة أوسلع متقاربة كالكتبيين والعطارين والقطانين والخضارين ... وإذا كانت بعض الأسواق قد اكتفت بدور التسويق فقط، فإن الأخرى جمعت بين الإنتاج والتسويق، ولهذا فكثيرا ما يصعب فصل النشاط الحرفي عن النشاط التجاري، فقد كان الحرفي يسوق منتوجاته بنفسه. ويظهر هذا المستوى من التداخل حتى على مستوى المصطلحات، فمصطلح "النجارين" مثلا، قد يحيل في غيبة سياق موضح على حقائق مرتبطة بصناعة الخشب أو ببيعه.

هذا، وقد انتشرت داخل المدينة المغربية منشآت ومرافق أخرى كالحمامات والأفران التي توزعت على الأحياء لحاجة الناس اليومية، فقد اشتهرت فاس بكثرة

---

(١) - الأنصاري، **اختصار الأخبار**، ص.٧٣.

(٢) - عبدالستار، **المدينة الإسلامية**، ص.٢٥٨.

مرافقها،[١] كما كانت نكور تضم حمامات كثيرة،[٢] ولما أراد اليسع بن أبي القاسم إتمام بناء سجلماسة "اختط بها المصانع والقصور".[٣]

- **الأحياء السكنية** : غالبا ما يتم توزيعها على أساس قبلي وديني واقتصادي، فالشريحة الغنية وذات الجاه غالبا ما تستقر في مساكن رفيعة وسط المدينة، ثم تتدرج أحوال الأحياء وسكانها إلى غاية الأحياء المجاورة للأسوار [٤].فمنذ تحديد موضع إقامة الأركان العمرانية لمراكش، اشتغل الناس ببناء وتشييد منازلهم ومساكنهم، كل حسب طاقته وحاجته، وهو ما سيحدد تراتبية التجمعات السكانية، ويميز بعضها عن بعض حسب طبيعة ونوعية الفئات الاجتماعية من أعيان وأشياخ وفقهاء وجند وعامة على اختلاف مراتبهم.[٥] و"يعتبر الحي نواة حضرية فعلية، فهو يكاد يستقل بمرافقه المتعددة عن المدينة، بحيث توجد داخله المساجد والحمامات والأفران والكتاتيب القرآنية والحوانيت إلى غير ذلك ...".[٦]

- **الشوارع والأزقة** : فالشوارع الكبرى قليلة وغير مستقيمة، وكثير ما تصل الأبواب الكبرى للمدينة فيما بينها،[٧] وتلتقي في المركز كما هو الحال في مدينة مراكش

(١) - ينظر : إدريس الشنوفي، **النشاط التجاري لمدينة فاس في العصر المريني**، ص.٣٨.

(٢) - البكري، **المغرب**، ص.٩٠.

(٣) - **العبر**، ج.VI، ص.١٧٢.

(٤) - فتحة، "تنظيم المجال الحضري"، ص.٦٨.

(٥) - أبو العزم، "معالم المدينة الإسلامية"، ص.٦٤.

(٦) - فتحة، ص.٦٩.

(٧) - فتحة، ص.٦٤.

حيث يعتبر جامع إبن يوسف نقطة التقائها.[١] و"تبدو المدن المغربية وباستثناء بعض محاور التنقل كمجموعة من الخلايا المتداخلة والمتلاحمة مع بعضها البعض بواسطة دروب ضيقة".[٢]

وقد كانت تترك بعض المساحات فارغة خاصة في الهوامش بالقرب من الأسوار، وذلك تحسبا لكل توسع عمراني محتمل، وتحول إلى مساحات خضراء تساعد على تلطيف الهواء، بل تمكن المدينة من منتوجات بقلية وثمرية وخضروات ... ومن التمتع والتنزه.[٣]

- **المرافق ذات الطابع الأمني (التحصينات)** : يبقى البعد الأمني والدفاعي حاضرا عند اختيار موضع ومواقع المدن وتأسيسها كما أشرنا سابقا، فيتم إحاطتها بأسوار وخنادق وأبراج وحصون تحميها من الغزو والهجمات، بالإضافة إلى طبيعة تصميم الأبواب والمداخل، وكل ما من شأنه أن يزيد من قدراتها الدفاعية والهجومية في وجه الغارات المعادية، أو احتمالات تعرضها لتمرد داخلي ضد السلطات الحاكمة. وقد اختلفت المدن من حيث درجات التحصين حسب أهمية المدينة ومدى تعرضها للخطر واهتمام السلطات بها وطبيعة موقعها وموضعها، والمرحلة التي تمر منها.[٤] وهكذا وجد تباين من حيث التحصين بين مدينة وأخرى، بل وفي جهات مختلفة من المدينة نفسها. والمهم فقد اعتبرت مسألة التحصين مسألة حيوية، خاصة

---

(١) - محمد دروا، **المدينة في تاريخ المغرب- دراسة مجملة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب- الرباط، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص. ٣٧٦.

(٢) - فتحة، ص.٦٤.

(٣) - الصوصي، "مراكش بين التأسيس والتمدين"، ص.٧٦.

(٤) - عباس الموسوي، **العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية**، ص. ٢٣٣.

في خضم الظروف التاريخية المضطربة، ولهذا توفرت جل المدن المغربية على السور الذي كان يحيط بها من مختلف الجوانب، وتوجد به أبراج غالبا ما تكون مربعة الشكل، وتخترق الأسوار أبواب محكمة البناء تشكل في الأعم نهاية محاور التنقل داخل المدينة، وغالبا ما تحمل هذه الأبواب أسماء مدن ومناطق مغربية كفاس ومراكش وسبتة وتامسنا ودكالة وغيرها.[١]

كانت مدينة نكور محاطة بسور من لبن، به أربعة أبواب : باب اليهود شمالا، وباب سليمان جنوبا، وباب بني ورياغل في الجنوب الشرقي، وباب المصلى غربا،[٢] وتوفرت سجلماسة على سور أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب"،[٣] ووصفت فاس بأنها "مدينتان مسورتان"،[٤] وكذلك وجدة.[٥] أما مراكش فلم تسور إلا حينما أحس المرابطون بالخطر الموحدي، ولما لم تكن مكناسة الزيتون مسورة، زودها المرابطون بقصبة تاكرارت.[٦]

وقد توفرت المدن المغربية على أبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة والظروف الأمنية، كما وجدت بمحيطها حصون ورباطات وقلاع تحميها، والشأن نفسه

---

(١) - فتحة، "تنظيم المجال الحضري"، ص.٦٧.

(٢) - البكري، **المغرب**، ص.٩٠ / جاك كاني، "إمارة نكور في أواسط ق.٥هـ (١١م)"، **البحث العلمي**، ع. ٢٢، س. ١١ (١٩٧٤)، ص.١٤٧.

(٣) - البكري، ص.١٤٨.

(٤) - البكري، ص.١١٥ / الجزنائي، ص.٢٤-٢٥.

(٥) - البكري، ص.٨٧.

(٦) - إبن غازي، **الروض الهتون**، ص. ٥-٦.

بالنسبة لمدينة نكور التي كان بجوارها رباط ينسب إليها يحميها من الغارات البحرية.[١]

من خلال ما سبق، نستخلص أن نشأة المدينة المغربية خلال الفترة المدروسة جاءت وليدة لرؤية عمرانية استراتيجية، ارتكزت على عدة مبادىء، وتفاعلت عبرها مؤثرات محلية وخارجية، ساهمت في تبلورها وأدائها لوظائفها.

(١) - البكري، ص.٩١.

obeikandl.com